اخلاق وآداب

احلام الاحلام

تأليف

المرحوم مصطفى بك نجيب

الطبعة الثانية

على نفقة احمد افندي سليمان جبريل

١٣٣١ - ١٩١٣

مطبعة ابي الهول بشارع محمد علي بالقاهرة
بجوار دار الكتب الخديوية لصاحبها عثمان فهمي

ابتدأت في قراءة هذا الكتاب مساء عيد الأضحى ٢٠ أكتوبر ٩١٥

وفرغت منه يوم الجمعة ٢٢ منه ٩١٥

محمد فؤاد الساداتي

سنة ثانية دار العلوم



﴿ المؤلف ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم

حدثنا صادق بن خبير قال: دخلت مصرا من الامصار. على عادة السياح والسفار، فترددت على ساداتها، وعيون أعيانها، وصحبت كهولها وشبانها، فطاب لي الزمان والمكان، وما زلت بها حتى دخل عليّ شهر رمضان، سنة ستين وستمائة وخمسة آلاف، او أحد عشر ومائتين والفين بلا خلاف، فسمرت ليلة من لياليه مع صحب لى وكان الحديث في فضل ليلة القدر، التى هى خير من الف شهر، والشيء بالشيء يذكر فسرد فقيه القوم ما جاء بها من شريف الاثار، وصحيح الاخبار التي منها ان تفتح ابواب السماء، لقبول الدعاء، وما زلنا نخوض

فى أمرها وتبرك بذكرها ، حتي نزل بالرأس ، طيف النعاس وانصرفت مع الناس ، وأخذت فى أهبة النوم ، بعد مفارقة القوم . وانا على شوف الى هذه الليلة المباركة الزاهرة، لألتمس من الله سبحانه وتعالى ما أريده من خيري الدنيا والآخرة، فما اغفيت حتى رأيت كأنى في وادٍ ابست تهام أرضه الحلل السندسية ، وتتوجت نجان نجوده باكاليل الزهر الزهية ، وجرت فيه انهار ماء النعيم بجمد وجهها تسنيم النسيم ، كأنها سيف سلّه كف مرتعش ، أو ذهل دهش . والشمس كأنها ملك تحرك للرحيل . فنثر تبراً لمواليه على الاصيل ، او كأن الافق شفة كأس ملىء رحيقا ، او شفة محبوب اعسلها ريقا ، وكأن السماء طيلسان لازوردى والافق سجافه الاحمر ، او امارة خجلة الشمس اذ دهمها الليل وناهيك بدهمة الاسمر ، او أنها من كثرة الالوان ، بستان ، او من الفرح ، قوس قزح ، والمكان على خلوه من كل انسان ، بعيد عن وحشة الزمان ، حتي كأن ارواحا مطهرة مسخرة للانس فيه تغرعصائب عصائب او كأن مظاهر من الابتهاج يتوالي طنينها وصداها من كل

جانب . يكاد الانسان يتسمع من حواليه أصوات الفرح فوق تلك الهضاب، ويتناغى باحاديث الطرب مع اعلام تلك الرحاب، وأنا كلما وعيت قلباً، سمعت عجبا ، فيالها ساعة انتعشت روحي برياها ، واتخذت بسناها ، وحركة الزمن من لطفها خفيت على الابصار ، حتى لم استشعر بولوج الليل في النهار ، ولم يدرك النظر ، تبدل سلطان الشمس بولاية أخيها القمر ، وقد أخذ النسيم بمجامع الاحساس ، كما اخذت المناظر بجميع الحواس ، فسرحت طرفي في أطراف ، وأرسلت رائد بصري لاستطلع الظاهر والخافي ، فلم يرتد على الطرف ، الا بما لطف وخف ، مما تختطفه النفس قبل العين ، وتتناوله الروح قبل اليدين ، وبينما رائد البصر ، يتنقل فى ظاهر هذا الجمال الذى ظهر ، ويستكشف منه غرائب ما استتر ، بسر نور القمر ، واذا بشيء تبدي وسط الأفق ، لا يشبهه نور البدر ، ولا تحكيه طلعة الفجر ، ولا تمثله ضوء ذكاء ، ولا مجموع نجوم السماء ، لازدياده فى رتبة الصفاء والضياء . فادركت ان ليلتى هذه غير التي قال فيها ابو العلاء

ليلتي هذه عروس من الزنـ ـج عليها قلائد من جمان

بل هي ليلة القدر ، والنور نورها، لا بدر ولا فجر، فاجرى الله على لسانى ان أسأله ليرينى (أعجب ماخلق فى الوجود ، وأغرب ماوجد من كل موجود) فما قلت ذلك ودعوت ، الا ورأيت ، ما رأيت : رأيت صورة لم أعهد ان الارض تنشق عن مثالها ، ولا ان السماء يتنزل منها مثل جمالها ، تكونت في هيئة شاب ينادبني ، وهو يوافيني ، يقول لقد أوتيت سؤلك فيما سألت ، فهلم الى ما طلبت ، فقلت وكيف ذلك ، قال أنا المسخر لان أريك ما تريد ، من قريب وبعيد ، وقد أمرت بأن أكشف غطاء بصرك اسبوعا ، لترى نفسك ماتشتهي لا مقطوعا ولا ممنوعا ، وموعدنا بكرة الغد ، بكرة الاحد ، بكرة اليوم الذى بدأ فيه الحق ، بخلق الخلق ، لتأخذ من كل غريب ، بنصيب ، وترى كل عجيب ، يذهل اللبيب النجيب فعاود الان النوم ، وموعـدنا بكرة اليوم ، لتحكم بالزين أو الشين ، فان النهار ذو عينين ، فقلت على الرأس والعين

ثم لم اكد استريح ، الا وقد أشرق وجه الصبح الصبيح وظهرت الشمس بوجهها المليح ، فاذا به بين يدى ، يمسح عن

عيني ثم قـذف بي في الفضاء ، وقال شأنك وماتريد ، وتلى فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، فاذا بي جالس على منصة بين الارض والسماء على غايه الاستواء ، فاعتدلت واسترحت ، وجلست وتمكنت ، ثم قال لى انظر فنظرت فرأيت أحياء كانها الجسد المسلول الذى ألم به الضعف ، فأمات منه النصف ، تظهر فيها الدور التى لاتروق النواظر رؤيتها ولاتشرح الصدور طلعتها ، ضاقت بها الطرقات ، وتضايقت الرحبات ، وتخللت أوصالها الخرابات كأنها هضبة في خلاء أو أقاض في فناء ، أو شئ آل الى الفناء ، وبجوارها قصور تمثل زخرف الارض وزينتها ، وبهجة الحياة الدنيا وسعادتها عالية شامخة ، مشيدة راسخة ، وضعت على أتم الاشكال الهندسية ، وأسست على أمتن الطرق القوية

فقال تأمل هذه مستقصيا لنعتها ثم نعود لنرى أختها ، فنظرت فاذا شوارع وأسواق عريضة مستقيمة فرشت ارضها بأجود الحجر ، وزينت جوانبها بنضرة الشجر ، ممتدة اغصانه متلاعبة أفنانه ، تظلل الممر ، وتلطف الحر والناس على ارصفة

من الجانبين ، مرتفعة عن البين، كى لا راكب يصدمهم ، ولا فارس يزحمهم، ولا مركبة تدوسهم، ولا مار يدافعهم، والحوانيت من الجهتين ملآى بالسلع المتنوعة النفيسة ، والامتعة المختلفة والجواهر الثمينة والملابس الفاخرة ، والاثاثات الباهرة ، والزخارف البديعة ، والغرائب من كل زينة ، والاوانى الجميلة العديدة ، ودكاكين باعة الزهور المتنوعة بها باقات لا يحصيها العد ، ولا يصل اليها الحد ، وضعت على اسلوب يأخذ بمجامع النفوس ، ويذهب البوس، وزخارف لسائر حاجات النعيم والترف ،منضدة معروضة للانظار كالتحف،وضعت من خلف زجاج الحوانيت فاكتست رونقا ازهى ، ورتبت على ابدع ترتيب فاكتسيت شكلا أبهى،وتخلل هذه الحوانيت مطاعم للغرباء ، ومشارب للنزلاء ، جمعت من المآ كل انضجها واشهاها، ومن الالوان اغربها والذها واحلاها ، ومن انواع اللحوم الطرية ، البرية والبحرية ، والبقول الفكيهة والفواكه النقية ، والموائد ممتدعليها غطاء ابيض نظيف وعليها الصحاف البديعة اللامعة مما خف ولطف ، من فاخر الخزف ، وبجانبها آلات

الاكل من خالص الفضة ونق المعدن وقنينات الخمور ، والماء المثلوج فى دوارق البلور ، وباقات الزهور التي تبهج الخاطر وتقر بمرآها النواظر ، مرفوعة على وعاء بديع يطوف على تلك الموائد غلمان في غاية النظافة والخفة والنشاط قائمون بمقام الخدمة البالغة منتهى الاتقان ، وقد زين المكان بديع الالوان ، ولطائف الدوالير التي تناسب مقام الطعام وتستجلب شهوة من راها من الانام ، وفوق هذه الامكنة الدور والفنادق والناس فيها على قدم وساق ، فالنساء تحلى وتجمل ، والرجال تتنظف وتتزين . ومنهم من ينتظر الحوذى ليهيء له جياد مركبته ، ومنهم من يستدعى الخادم ليأتيه بملابسه الجديدة وأمتعته ، فقلت من هؤلاء . قال النزلاء الاجانب يفعلون هذه الافعال لخلوهم اليوم من جميع الاشغال فاليوم عندهم يوم رياضة وخلاعة ومجانسة ومؤانسة ثم نظرت فاذا جماعة آخرون فى هياط ، ومياط ، منهم من يصلح رداءه ومنهم من ينتظر حذاءه ، ومنهم من راسل أحد اصحابه من ارباب الاموال ليأتيه بشيء يصلح به الحال ، ومنهم من أخذ يلج مع اهل بيته حتى يأخذ حليا يودعه ليتم

له ما يريد أن يستجمعه ، ومنهم من أخذ فى الشتم والضرب والنهر والسب ، لفساد وقع في بعض حاجاته ، او نقص اتفق حدوثه لشيء من أدواته فلو رأيت الواحد منهم وقد وقف امام المرآة يتأنق في لبس أثوابه لعلمت سر التمدن الحديث كأنما هو العروس ليلة زفافها يبتدىء كله الله بتمشيط شعره وفرقه بالضبط والتدقيق ثم ينظر اليه بعين المنتقد الدقيق ويقلب رأسه يمنة ويسرة ويحركها أماما وخلفا ليرى مجموعها من جميع الجهات ثم يعكف على تلك الشوارب فيكويها عكواها حتي تصبح على أجمل ما يكون من البرم والفتل ، وتحوز على جمال صورته أحسن الشكل ، ثم يقصد علب المعطرات الطيبة ويأخذ منها ما يأخذ على تنوع الاجناس ، منها ما هو للرأس ومنها ما هو للمنديل واللباس ، ثم يتبسم في المرآة ويعبس ليري نفسه كيف يكون أنسها وقت الطرب وبأسها فى ساعة الغضب ، ولا يزال حتى تطمئن نفسه ويرسخ فى اعتقاده كمال حسنه ، ثم ينتقل الى رباط الرقبة ولا يزال فى حله وربطه حتي يحكمه ، وهكذا يفعل في كل قطعة من ملابسه

فلا يفرغ من هـذا التأنق الا وهو يزري بقضيب البان ، ويقول فى نفسه أنا الانسان ، في كل زمان ، فقلت ومن هؤلاء قال المتشبهون بهم من أهل البلد، فى احترام يوم الاحد فبقيت أتأمل ماهم فيه من حلق ونتف ، ومخط ونف ، ونظافة أثواب وملاحظة أسباب ، كأنما البلد منحت بنصر مبين أو فازت بفتح جليل ، أو كشف للناس عن حقيقة علمية أو اختراع مفيد أو شيء مما يرغب فيه أو فضيلة مما يحث عليها ، اذ أقبلوا يجهزون دواعي السرور ، ويقيمون شواهد الانس والحبور ومن شدة العجب من النظر لتلك الصروح العظيمة ، والمباني التي حول تلك السوح الجسيمة ، والماء الذي يتفجر فى وسطها من الفساقي العميمة ، وبيوت الحان والملاهي والملاعب والدور المزينة بأنيق الاثاث المفروشة بالخز والديباج ، لم أدر كيف انصرف عنها ، فقلت لصاحبي ما أحسن ما اريتني وأشد ما أبهجتني !! فقال دع هؤلاء فى شغلهم حتى يتموا أمرهم بنصب هذه المصائد وتدبير المكائد ، خل اللص يتشاور مع أخيه ، في المال الذي يود أن يلاشيه ، واترك صاحب الحان يخلط

السم المحلول ، في كؤوس الكحول ، والقواد يرسم للغانيات كيف يحتلن حتي يسلبن ، ويهجرن حتى يغدرن ، فانما موعد ماتراه من الزخرف وتفسير ما أبهجك من الباطل فى هذا المأكول والمشروب قبيل الغروب ، وألفت نظرك الآن الي الناحية الأخرى لاريك ما هو أحرى ، ففعلت ، واذا بي مطل على تلك الناحية الخراب وبعد شدة التدقيق ، والتحديق لحت العين فيها أثاراً تدل على سابق مكانتها في العز ونعمتها في سابق الزمن ، قامت فيها المنارات على المساجد ، والقباب على الاضرحة ، جمعت أفخر البناء وأرصنه وأتمه ، وأمتنه وألطفه وأحسنه بأبواب وأسوار أقيمت بهندام ، كانما هى سياج على المدينة من الابهة والجلال ، وهى مع هذه المناظر الظاهرة الدالة على العظمة منيت بازقة مستقذرة ، لاتكاد تهتدى فيها الطريق أو تمشى مع صاحب او رفيق ، جرت الاقذار في وسطها وسرت الروائح الخبيثة في جوانبها ، والكلاب العاطلة شغلت طرقاتها ، والجمال التي تحمل الاحمال سادة عرضها والحمارة تنقل الناس والحجارة ، والطامة اذ يلتقي الجمل بالجمل

فيتعطل السير والعمل ، بين قوم معرضين للاخطار ، تحت رحمة هؤلاء السوقية الفجار والدهاليز والحوانيت لا تسكيت ولا تبكيت

قبور تطل منها اموات الاحياء ، فى تلك الاحياء ، وكثير من دكاكين انباعة على جانبيها اهرام من السلع الكاسدة ، والامتعة الفاسدة ، والبضائع التى دارت عليها الاحقاب ، وقلبتها ايدى الطلاب ، ونقلها الخلف ، عن السلف ، حتى نسج عليها العنكبوت قصورا ، واخنى عليها الدهر كثيرا ، وصناع نسخت صنائعهم مستحدثات الامم المتمدنة ، وأماتها كر الازمنة وأمام بعض الدكاكين فوارغ لا يبالى واضعها تضييق الطريق ولا بأذية أبناء السبيل ، والاسواق منها ماهو مسقوف بالحجر ومنها ما هو معروش بقطع الحصر البالية تحمل بعضها الاخشاب النخرة ، وبعضها الاعواد الرفيعة ، والى جانب أولئك مرابط الخيل والبغال ، والحمير والجمال ، هذه بركت بأثقالها ، وتلك أنيخت بأحمالها ، والفضلات قد ملأت تلك الفسحات والدور ، ما بين منشور ومنظوم ومنثور ، والذباب

يثب منها لمهاجمة المارّين . وملاطمة وجوه الفارّين . كأنما يذودهم عن مؤونته، أو يصدهم عن بغيته، والكلاب تنبح كل ذي نعمة لكونها لم تعهد غير الفقراء ، وتصول على كل راكب لأنها لم تألف أصحاب النعماء ، ومطاعمهم من لحوم الجمال والماعز والغنم قد أدركها، العفن والوخم . التي منها تصد النفس عنه قذارة الجزار ، والشواء ترد عنه رداءة الصحاف ووساخة الخوان والبقالون والسمانون والخبازون يستقذر حالتهم كل ذى ذوق ويعاف حاجتهم كل ذى نفس . تتنقل الكلاب فيها من مكان الى مكان ، ومن دكان الى دكان ، يطول مزاحها بين أرجل العابرين، ويكثر لعبها بين يدي الواقفين ، وصيدليات أخذت الاجزاء فيها من القدم شكلا يخفى تركيبه على بقراط فالمريض، مسلم الي الجريض والمكاتب جمعت كل صغير جمع التكسير يجلسون على قطع من الحصير وقد ضاق المحل بأنفاسهم فأوقف حركات حواسهم ، والناس كأنما لا نظر ولا روية ، ولا ادراك بالكلية ، وأينما توجهت لا تجد الامناظر وأحوالا تشمئز منها الارواح ، ووجوههم بالنسبة لاولئك كأنها ممسوحة

بيد الكآبة بحكم الناظر لها بان التوفيق لم يمر عليها والضيق لم يفارقها ، فقال لي صاحبي امكث بنا هاهنا نقضي بعض هذا اليوم مع هؤلاء القوم لنتأمل من حالهم ، ونعرف دواخل أحوالهم فامتثلت ومكثت فاذا فى كل حركة بركة ، حيث عرفت ان القوم على شدة ماهو نازل بهم من بلاء ، وقلة ما عندهم من البيع والشراء ، لايغفلون عن الحمد والشكر فى السر والجهر ، والذى يبايع منهم النسوة ، يبالغ فى الاحتشام مختصراً معبن فى الكلام ، ويكادون لايبايعون الا بالحلال ، ولا يستحلون في غيره كسب المال ، والناس على سكوتهم وخشوعهم من ركون ماهم فيه من الانحطاط ، ناقمون على الذى أسس فى بلادهم هذا الافراط ، حافظون أنفسهم بأنفسهم فترى سهم كيدهم بينهم ، وأمرهم فى يدهم ، لانى لم أجد أحداً من المحضرين ، وقف علي أحد الزياتين ، ولا جيء باندار الجزار بل كل هذه المعاملات والطلبات راجعة الي كبرائهم وأغنيائهم ولم أر بينهم أجنبيا الاشاريا ، لاساخطا ولا زاريا ، يفتخر فى المنتديات بما يأخذه منهم من العاديات ، فصرت أنقد هذا

الحال ، وانطلب السبب الذى أدى بهؤلاء الناس الى هذا المآل حتى أذن المؤذن لصلاة الظهر فقامت الناس من مواطنهم الي مساجدهم ، وأدو الصلاة بالجماعة ، بكمال الطاعة ، ثم عادوا واشتغلوا بأمرهم ، فمنهم من تدارك لوازمه من السوقية المارين ومنهم من أخذها من الدكاكين ، والكل لايتعدي الطاقة ، اما من القناعة واما من الفاقة ، وهكذا الى صلاة العصر ، فلما أذن صلوه ، والذى فعلوه بعد ذلك فعلوه ، واخذوا جميعا فى الشراء والبيع حتى صرنا قبيل الغروب ، وجاء الوقت المطلوب قال لى صاحبي ليس بعد الآن الا أن يأخذ كل من هؤلاء أهبته ويرتد جبته ، ويملأ من الدخان او النشوق علبته ، وينتظر ولده مثلا الى ان ينصرف من الكتاب ، ويحمله الوطاب . ويصرفه الى البيت بالسمن او الزيت . ثم يغلق الدكان . ويقرا عليها شيئا من القرآن . للتحفظ من سارق . او مارق . ويصلى المغرب حيث تدركه . ثم يذهب الى البيت . وهو ينشد البيت

ولبس عباءة وتقر عيني أحب الىّ من لبس الشفوف

فدعهم الآن والتفت الى الناحية الاخرى . ثم لفت

وجهي بيديه فاعدت النظر وارجعت البصر واذا بنهر عظيم
مد عليه جسر قويم ، جمع ضفتيه بطرفيه ، تسير فيه المركبات
تحمل بدورا هالاتها القبعات ، وما ادراك ما القبعات تيجان
جمعت ازاهير الرياحين ، بجميل الصنع لا من اصل التكوين
فاستغنت عن أيادي النبات ، بأيدي البنات ، جمعن فيها اقحوانا
كالثغور ، وغرسن وردا يفاخر خدود ربات الخدور ، ونسقنها
بزهور لم يسقها الوابل الهتون ، بل سقيت دمع الشجي المفتون ،
حكت احاسن الزهر ، وفضلته ببقائها الشهر والدهر ، ان فاتها
ارج الروض فقد عوضته الغانيات بطيبها ، او عدتها الغصون فهي
على مثلها من قاماتها ، من كل هيفاء تفتح البدور في لفتاتها ،
وتسبي الظباء في فلواتها ، جوالس أو انس ، ضواحك غير
عوابس وقد اقتفت اثار هذه المركبات مثلها سيارات مسرعات
حملت من جماعة الشبان أولئك الذين مزقت تربيتهم التقاليد ،
الذين اوقفوا أنفسهم لعشق الجمال ، وطلب الوصال ، وقلوبهم
تسبق الجياد ، لنوال المراد ، والعيون حيرى بين الجمال ،
والدلال ، والافكار حائرة في هذا الحال ، في سوق قامت

لبيع المهجات ، للأعين الناهبات وقد اخذ كل شاب مع رفيقه سر أحاديث الحسان ، وانه على موعد من تلك التي هي امراة فلان . وليس منهم الامن يتباهى بما هو فيه من الصقال ليظهر بمظهر الجمال لرتبه ويفوق على من هو فى صحبته كأنهم فى ميدان التخنث يتسابقون ، وفى حلبة التأنث يركضون ، وأولئك يلحظن باللحظات ، فتثبت لها العقول الثائرات ، ولسان الحال ينادى

صاح فانظر لاى حال نحور　　نساء رجالنا ام ذكور

وبين هؤلاء الغادات ، من تزيا بأزياء المسلمات والشرقيات بحال تصب النفوس مشاهدتها ، لشدة ماهن فيه من التبهرج والتبرج بالزينة حتي فاقوا الاجنبيات اللواتي قلدنهن ومازلن في جيئة وذهاب ، واتخاذ وسائل وأسباب ، حتي بلغت المراكب الالوف بعضها يتنقل والبعض وقوف في الصفوف ، حتي كأن تلك المروج النضيرة والبساتين سماء كواكب ، زينت بهذه المواكب ، ثم اخذت تلك الجماهير فى الانصراف ، عن تلك الاطراف ، حتى خلت البقعة من الهوادج والغانيات ، وتبدلت

حالتها وسبحان مبدل الحالات ، فقلت لصاحبي ماهذا العيس وماهذا السفر والقوم لم يفارقوا الحضر ؟ فقال هـذا ميدان مغازلة ، لاميدان منازلة ، وعراك لبلوغ الاوطار لالاستيطان الاوطان ، واجتماع لفيح جميل ، لالفيح جليل ، وانتصار على العقل ، وتحالف مع الجهل ، هذا ميدان يجدع انف الغيرة على الحريم ، ويفتك بكل خلق عظيم ، هذا ميدان مغازلة ، يجر الى مقابلة ، تفضى الى مقاتلة ، فقلت وكيف وصل تبهرج النساء المسلمات فى هذه الديار ، الى هذا المقدار ؟ قال ان حركة التقليد السريع ساقت الطبقة العليا وما يليها من الامة الي محاكاة الافرنج في كل الاساليب ، والحجاب يهتك فيها بالتدريج حتى صار الى ماترى من الابتذال البعيد عن الدين ومذاهبه الا من عصم الله من بقايا العائلات القديمة الذين ألجمتهم التربية الاولي وفي بيتهم شئ من الدين . أومن كان حين دهمت البلد هذه البلايا فارقوا عنفوان الشبيبة فكبروا عن التقليد الجديد ولم يتبدلوا . وقد سرى هذا الداء حتى دب دبيبه في بيوت الشيوخ والمنتمين الى حماية الدين وظهرت بوادره فاسأل الله

أن لا يريك أو اخره . قلت أمين

قلت ثم هم الي أين منصرفون وكيف هم عن هذه الناحية ناحون ؟ قال الى حاضرة البلد لقضاء بقية الليل فتابعتهم بنظرى وماشيتهم ببصرى فتفرقوا شيعا فمنهم من قصد دور السكن ، ومنهم من توجه ميمما بيوت تلك المحن ، وجانب البلدة اتقد بالانوار ، التي قامت مقام الشموس والاقمار ، فلا ليل ولا نهار ، ولا أصائل ولا ابكار

كهربة أسعد بها تحفة جاءت الى الشرق من المغرب
دنت الى الارض ومن حقها ان لا تدانى نازح الكوكب

وتلك الملاهى التي وصفناها ، والمغانى والحانات التي ذكرناها ، تعددت فيها المشاهدات وتناهت فيها الغايات ووجد فيها كل ما يتمناه الانسان ويشتهيه بحيث تفنى الشهوات ولا تفنيه . وزادت بهجتها بسر الاجتماع ، فتناهت فيها مناظر بدائع الصناع فأما نظرت عجيبا مدهشا . واما رأيت رأيت بديعا منعشا ، الرجال في حللهم الفاخرة ، والنساء بحليها متفاخرة وكل جماعة في تنوع ملابسهم في الحسن واتفاق فى الزي

كصحبة الورد أشكالا وألوانا ، وكالبستان روحا وريحانا

فبينا أنا أعجب . من هذا الموكب واذا به يشير عليّ بالتطلع للناحية الاخرى ريثما يصلح بعضهم من أمره ويعكف كل على شأنه فأجبت ونظرت فهالني ما صرت اليه من الظلمة بعد ذلك النور . وما رأيته في تلك الدور بعد هذي القصور فان ما فيها من أدوات الاستصباح لا يتعدى نوره محيط جسمانه ولا يزيد على اضاءة أركانه . فدققت النظر فاذا بعض القوم في منتهي العشاء وبعضهم في مبدأ صلاة العشاء فانتظرت حتي فرغوا مما هم فيه ومنهم من غلب عليه حب البقاء مع أهله فجلس يحاكيهم وهم يسمعون . ويفاكههم وهم يطربون . أقاصيص لا تخرج عن حد اللهو البسيط والفكاهة المقبولة . ومنهم من انتقل الى دار بعض اخوانه وقد سبق اليها غيره من خلانه . فاجتمعوا يؤانس بعضهم بعضا ويؤدي ما يحسنه من أسباب الخلاعة لانشراح النفوس وسرور الخواطر وشرابهم القهوة ونقلهم الدخان حتي اذا مضى من الليل بعضه تسلل كل الى منزله ومكانه بعد ان قضى ما يجب عليه لاخوانه . ثم أغلقت

الدور على من فيها، وبقيت تلك الناحية وليس فيها من أسباب الملاهى الا القهاوى، التي يؤمها أرباب الاشغال والوظائف الليلية كالفقهاء والمؤذنين وأرباب الدرك للاستراحة وقطع الوقت. ولهم فى بعضها شاعر يسمعهم بعض الاقاصيص الموضوعة كعنترة وأبى زيد وهم من سماعه منشرحون. وعن غيره من الملاهى لاهون. ومع قصر تلك المجالس المنزلية. فانها لا تخلو من فائدة دنيوية أو مزية أخروية فقلت فى نفسى حبذا الحال. واذا بصاحبي يدعونى للالتفات. لتلك الجهات فحولت نظري فرأيت الامكنة خفت من أولئك الاجانب الا القليل من أرباب المقاصد الذين لم يقضوا وطرهم الذى هيأوا أنفسهم اليه من قبل. وانما يعمر تلك الملاهي أولاد السادات وقد خرجوا عن حد النشاط والانبساط. الى الافراط. حتي ان الناظر اليهم يقول ان الخمر اذا لم يحرمها الشرع. لحرمها هذا الطبع. وقد عكف كل على شأنه وهو متهتك فيه. ويا حسرتا على تلك الملابس التي كانت جميلة. والهيئات التى كانت جليلة فمن رداء مهدول. على بدن منحول. ولسان لا يعلم ما يقول

وانسان بعد ذلك التهذيب يصول . وامامهم تلك السموم التى افرغها صاحب الحان في كؤوس الخمر . بل الجمر . وقد أصبحوا اضحكة الرائح والغادى ومثلة الملاح والحادى . يسأمهم من كان يألفهم ويهجرهم من كان يهواهم . ثم بعد حسو تلك الاقداح . بالقاتل للارواح . سار بعض هذه الجماعات . الي بعض المنازل الشاهقات . وهي التي أقيمت للمقامرة . لا للمسامرة منازل نوائب النازلين بها الفقر والسهاد . ونصيب الفاتحين لها اليسر والعناد . اختصروا للقوم الحياة عن قرب . فاما عدم فى دقيقة فانتحار . واما غنى فى ثانية فيسار . تراهم جالسين على موائد منتظمه الوضع وعليها أدوات الميسر على طرائق اللعب المتحدة الاصل . ثم تقرب السهام . وتقاسم الازلام . واذا المال يقول الفرار الفرار . والدينار لاتصافحه اليمين حتي تودعه اليسار . بعد أن يبقى على الوجوه من آثاره لون الاصفرار . فكأن الورق اذ يدارى . نجوم الفلك المدار . في بعضه الشفاء وفى بعضه البوار . واحداق العيون تتقلب فى دائرة الحسرات وتعد دوائر الساعات . لانظر لها الا ذلك المال الموجود المفقود

وحالها حول لونه الوهاج . حال الفراش حول السراج ، وصاحب المكان ، شقيق صاحب الحان . لاشغل له الا تلطيف بعض تلك الحالات ، بتقديم الكؤوس من العقار ، لينسى اللاعب ألم بيع الدار والعقار ، والقوم أصابهم سهم القدر . لاينتهون ولوجاءهم من الايام ما فيه مزدجر . يلحظون بعضهم بعيون كأنها كأس خمر . ترمي بشرر كالقصر . كأنما حشوها جمر . ثارت بينهم الثارات . ودارت كؤوس الحسرات غرهم مالاحت بوارقه فى ظلمة العيش وطمت بوادره من شدة الطيش فجاءوا بالاموال الموروثة حتي اضاعوها ثم أخذوا يقترضون ويلعبون يرجون المنفعه من وجه الضرر . حتى اداهم الحال ان صاروا عبيدا لهؤلاء الزمر . ووضعت الاجانب يدها على العقار والديار وأصبحت عاملة على رهنه اما باسمه أو باسم البنك القائم مقام كثيرين منهم ولم ينج أحد من هذه المظاهر الا القليل وما زلنا ننظر هذه المناظر التى تدمي عين الناظر . الي ان تصرم الليل وانصرف كل الى مكانه اما بالخسائر الفادحة واما بما يظنه الجاهل مكسبا وهو جزء من ماله المستلب .

وكيف لا يكونون كذلك ومبلغ علم الواحد من هؤلاء الجهلاء خبر جواد مطهم اشتراه، وآخر باعه أباه أو حظية عشقها ورافقها أو أخرى خادعها ونازعها، أو سرد تواريخ ليال السرور. وساعات الحبور التي أحياها وجيء فيها من الأماني التي هي في الحقيقة منايا والتعريف بمقدار النعم التي رتع في ساحتها والمنح التي منحها حتى ذهب فيها مقدار من أمواله، مسكين ليس له نصيب من بركة عقله وصفاء ضميره، سيء لانه ابعد ما يكون من علم وعمل، وأسأم ما يكون لفائدة تعرض عليه ولو انها جلل فلا حظتهم بنظرى حتى وصلوا البيوت وهم في سبات من هذا الحال فمنهم من أوصى بتعريف كل سائل (بأن البك سافر لطلب مستعجل جاءه من وكيل أشغاله بالتلغراف) ومنهم من أوصد الباب، وسد باب السؤال والجواب، ومنهم من لم ينم حتى نمق الرسائل واحكم الوسائل، لبعض اخوانه يطلب شيأ يسد به هذا العوز ومنهم من أتم ليلته في التشاجر مع حليلته، يحتال عليها ليأخذ شيأ من حليها وهي بما اعتادته منه من كذبه، وقلة أدبه، تمنعه وتدفعه، ومنهم من اضطجع قليلا

وفكر كثيرا حتى عزم على أن يقصد أحد أرباب البنوك فيحتال بتقبيل الأيدي والأقدام، لينال ما ينال . هذا ونساء البيوت تشكو ماهي فيه وتستجير فلا تجار . باتت على وسائد السهاد والانتظار . واصبحت على اخبار الخسران والافتقار عار وأي عار ان ينزع السيد بيده حلياً ألبسه لاهله . ليبيعه لسد ما جنته يده فيما هو ليس من أهله

ذكر في بعض الاقاصيص . كتب كلب الى كلب أما بعد يا أخي أدام الله حراستك ان من بني آدم قوما تسافلوا الى حد ماعليه من مزيد حتى أصبحت أنا وأنت بالاضافة لهم معن بن زائدة وطلحة الطلحات فارتفع في المجازر واصعد على المزابل وارفع ساقك وبل على من لقيت منهم والسلام

ثم تركنا هؤلاء على حالهم السيء ونظرنا نظرة للاجانب اللذين كانوا معهم وفعلوا ما فعلوه تقليدا بهم بل كانوا يحثون أمراءنا على فعل مافعلوه جهرا ويضحكون سرا فاذاهم ناعمون على انعم بال . وأتم راحة وأفضل حال . لانهم لم يستول عليهم الهوى بخفته . ولا الضلال بجملته . فاقاموا ما أقاموا والجد

مصاحبهم والعقل غير مفارقهم . فلم يجروا البلاء لا نفسهم بايديهم ولم يغوهم شيطانهم وعينهم . ولا فات أحد منهم درهمه . ولا أضاع الوقت الذي قرره ورسمه . ولم يجهل في أي موضع يضع قدمه فلم يعمر ذلك المكان لآخر الزمان الا سادة الوطن ولم يتركوه الا بعد ان أدركهم العطب والعطن وأحرمهم ماذاقوه من البلاء لذة الوسن . وأعجب من ذلك ان اولئك الاجانب فى شبه المحجور عليهم لانهم مضطرون بسبب أشغالهم الي عدم الخروج لهذه المنازه على الدوام الا في هذه السويعات فى مثل هذا اليوم يوم عطلة العمل عندهم . ولكن الامر مدبر بينهم معلوم لهم ما سيكون لهم وعليهم فيه ولم يؤثر فيهم طول الاحتجاب عن مثل هذه الملاهى ولم تدعهم حالة الشره الى الميل مع الشهوات ولم يتجاوزوا موعدهم أبدا ولم يخلفوا مع أهلهم عهدا والذى سكر منهم أو قامر لم يسرف فى شيء فوق طاقته ومنهم من لا يخرج الا بعد أن يرصد ما سيقتضيه صباح يوم الاثنين من بعض أولئك المدينين فيعقد معهم العقود . ويقوى العهود وهم يحمدونه على انه لم يتركهم وقت الشدة.

ولا نسي عهدهم زمن الضيق. بل منهم من يعين أولئك الخاسرين عياله في ذلك الوقت وهو متطلع الى الدرهم فضلا عن الدينار محتسبا عليه ذلك عما يريدو يشتهي من الفوائد الجسيمة، والارباح العظيمة ثم تركنا هؤلاء أيضا في استراحتهم وحوّلنا النظر الى الجهة التي يدعون انه تم عليها القدر بالخراب. فوجدناهم قضوا ليلهم لباسا ليقضوا نهارهم معاشا، وقام الكثير قبل صلاة الصبح فأدوا فرضه، البعض في بيوتهم والبعض في بيوت الله. ثم ذهبوا الى دكاكينهم ففتحوها وجلسوا يبتغون فضلا من الله ورزقا حسنا،

فأخذت صاحبي الى ناحية في تلك الناحية وقلت بحياتك فسر لي ما أنا فيه، فقال هو نتيجة التقليد الاعمى وأخذ كل قبيح. وترك كل مليح، حتى أصبح السادة عبيدا، والعامة قادة واصبح جميع الاهليين لو وضعوا مع الاجانب في الميزان لكانوا في كفة الخسران، هل تصدق لهم لو لم تر - وقد رأيت أولئك عصر النهار، على تلك الابهة والوقار، ان يؤول بهم البوار الي هذا الحال؟ كيف كنت ترى تلك الزينة، وكيف

تشاهد الآن هذه الوجوه الحزينة ؟ انقلب وردها بهارا . وبشرها انقباضا وازورارا . هذه الطائفة التي نشأت بين عادتين وتربت بطبيعتين اصل الفطرة والسجية ، الموجبتين للتسامح بالكآبة ، والادب الجديد ادب الغش والتفنيد . فضاعوا بين الضدين ، واصبحوا ما أكلة في لمحة عين . سافروا الى تلك البلاد ليجتلبوا منها الخير لنا ولهم ، وليتشبهوا ان لم يكونوا مثلهم ، فعادوا فاسدي الاخلاق ، حاملين الى البلاد ما لا يصلح لها ، ذلك انه لا مكره لهم هناك على تعلم العلوم ، ولا رادع لهم اذ ذاك عن التخلق بكل خلق مذموم فقادهم طيشهم الى ارتكاب كل منكر وفاسد واحوجتهم الحالة الى التشبه بآدابهم ومنهم من لازم الاجانب في هذه البلدة وقال لمن سافر سأدرك قاعدا ما ادركته مجاهدا فدخل البيوت ولازم النوادي ووقف نفسه على رضاهم فدهم الكل داهم الشهوات واصبحوا لا ترشدهم خطوبهم الى عيوبهم ، ولا يتحاشون شيئا دون نيل مرغوبهم آخذين بمعايب الاجانب ، متشبهين بهم من كل جانب ، داخلين في غمارهم نازلين في ديارهم ، وهم يستلبون منهم كل

نمين والحكومة مغضية عن كل ذلك . مغمضة اعينها عن أسباب المهالك . تترك الاموال تجري الى البلاد الاجنبية مندفعة اندفاع المياه في التيار . تختطف وتوارى قبل ان تلحظها الابصار وكأنما الكبراء فيها يساعدون الاجانب على سلب أموال الوطن وهم لاهون عما بين أيديهم من أسباب الطرف والنعيم لا يتفطنون عما يأخذ بجسم الامة من الانحلال ويعترى ثروتها من الاضمحلال، ولا يحمسون لدرء غارة الاجنبي عن كنوز البلاد فالحكومة لا تدخل في هذا الامر أصلا كأنه لا يعنيها فقر أولادها الذين مات آباؤهم في خدمتها للحصول على رضاها فانتهت أموالهم بهذه الصورة التى رأيتها وأصبحوا الآن ولا خصم لهم الا العادات القديمة يريدون ملاشاة وجودها والعبادات الدينية يودون اطفاء نورها . جهلوا الحياة الشخصية والسيادة العمومية . فأعدموا وافتقروا وهدموا ودمروا وضلوا وكفروا . وتلبسوا بالجرائم وسهلوا المآثم . وثلوا عرش أملاكهم . وسعوا في طريق هلاكهم . وكل هذه الجهات التى أعجبك لطفها . وهالك ظرفها . هى القصور التي تجردعنها

لترف

الوارثون وأضاعها الاهلون . وصارت الى غيرهم بسوء تدبير هؤلاء الشبان . وان الانسان ليتقطع قلبه حزنا اذا اطلع على بقية ملاكها . وفيهم صبية كالفراخ أو أرامل غفل من صون الحجاب والانقطاع الا عن أهل لا يعلمون من أمر هذه شيئا ولا يفيقون من غفلتهم الا وقد حضر محضر البيع وجردهم عما يمتلكون ويصبحون وهم في دار الذل من سوء ادارة ذلك الولد المحبوب الذى اضاع ما اضاع في شهواته فهل ما أنت فيه هو العمار . أو تلك الناحية التي عليها مسحة التعاسة والانحطاط المشوهة المنظر والهندام احياء الوطن المنحط وأهله البائسون تركوها على هذا التشويه الظاهرى تصون البنات وتحفظ الشرف وتستر العورة ولا تبدى السوأة وتخفى السيئة وحسبك ان كل دار هناك لصاحب الدار وكل قصر هنا معار وقد أصبحت هذه البقعة وهى لا تتجاوز الافدنة تأكل خمسة ملايين من الافدنة التى هي اطيان القطر ولا تظهر فيها وتأتى على تركات الامراء فان أغلبها تصفى في ارجائها فكانها على حد قول ابى احمد الهروى

هراة أرض خصبها واسع ونبتها التفاح والنرجس
ما احد منها الى غيرها يخرج الا بعد ما يفلس

⁂

أغرك ما تلقاه من حسن ملبس ومن شاهقات الدور نحو السما تعلو
ومن عربات غاديات روائح ومن كهرباء لا يصادمها الليل
مناظر اوهام لعمرك كلها وماذا يفيد الزج غادره النصل
مظاهر تقليد اقيمت بلا نهى اذا هدمت يوماً تبوأها الصل
بنتها يد الاوهام حتى اذا هفت بها الريح اهوتها فليس لها أصل
تركنا سجايانا وهمنا بغيرها غروراً ففى أعناق أكثرنا غل
جهلنا نواميس الحياة وانها لاول ما يدعو لها العقل والنقل
تبصر فليس العيش الا معامع يفوز بها الاقوى ويكبو بها النذل
فمن نام عن حق له ضاع وامحى ولا تر ذا ظلماً فهذا هو العدل
قضت سنة الدنيا بهذا فلا تكن أسير أمان لاشعور ولا حول

أين أزمان هذه الاماكن التى تراها الآن مغلقة موصودة ؟ لقد كانت زهرة البلد لا يسكنها الا ساداتها وأمراؤها . وكان ما حولها من ضاحية البلد منارة لها . وكانت من الطهارة فى درجة تقرب من طهر المساجد والمصليات لا يخلو بيت فيها ليلة من الليالى ولا يوما من الايام من شئ يتقرب به الى الله تعالى كتلاوة القرآن والحديث ومواساة الفقراء

وموأزرة الجيران . وكانت نواديهم حواضر ادب يفتخر فيها بكثرة الاطلاع والتبحر فى العلوم والمعارف . ثم حكم هذه البلاد حاكم غير الاحوال وبدل الافعال لانه ممن ربي فى غير هذه البلاد ومال الى الاجانب ميلة هوى لا ميلة تفرس وانتقاد . فلما استقل له الامر قلدهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ولم يكن ذلك بتدبر وتبصر بل بالتسرع الشديد الذى اراد ان يستخدم فيه جان سليمان فضلا عن الانسان وان يستبدل اليوم مكان الشهر والحول موضع الدهر فنقل البلاد والعباد والاخلاق والمعاملات وجميع الشؤون الشخصية والعمومية الى أحوال أخر حتى تراكمت عليه وعلى غيره الديون والطلبات واستحقت المستحقات فى آن واحد ضاقت فيه عنها اليد والزمان فخرج لهم عما ملك

وبيان ذلك ان اول ما بدأ به من تغيير الحال تغيير السكن وهيئة المعيشة فحبب لقومه ظاهراً واكرههم باطنا على استعمار ضاحية البلد على طرز مخصوص وبناء معهود وشكل مقصود . فخرج الناس الى تلك الناحية يقيمون فيها

القصور مرضاة له وفتح باب الاقتراض من الاجانب بنفسه ليهونه على من يعز عليه ذلك منهم . فقامت الابنية بعضها بالنقد وبعضها بالدين وبعضها بثمن ما كان للمالك من ملك أو عين . باع تلك واشترى هذه غبنا . ومنهم من ارتبط بشروط ومنهم وهم القليلون من الخاصة من ساعدته حالة اليسر على عمل ما أراد فبنى وشاد . ثم لم تزل الايام تتقلب بها وباهلها حتى انقلبت هذه الجهات مستعمرات اجنبية . وكذلك العالم يستخدم الجاهل والعاقل يسلب المجنون والبسطاء يضيعون بين التزلف والاذلال . فكان ما كان من هجران تلك المنازل القديمة لانتقال أهلها فى أثر اصحاب الجاه ليتقربوا اليهم ويعدوا منهم لاستحسانهم ما استحسنوه . فعمر من البلد ما كان خرابا . وتخرب ما كان عمارا . ثم لم يلبث ذلك العمار الموقت ان ضاع من يد أهله بتلك الطرق أو انتقل الى جهة أخرى لاختلاف رغبات الحكام وميل بعضهم للجنوب والآخر للشمال وأصبحت هذه الجهة لا يأوي اليها الا من تراه فيها . ثم زادت على الحكومة التكاليف التى تستلزمها العادات

الجديدة من كنس ورش وفرش بالآجرّ وغيره . وتعهدت بالماء تقربا الى الاجانب بكل جميل وبخلت على تلك الجهات الاصلية كل البخل فلا تفتح فيها الشوارع التى تصلها بهذه التى تم تنظيمها ولا توصل الى ازقتها الانوار التى يستصبح بها أهل تلك من الغاز فضلاً عن الكهرباء بل قد أنف رجال الصحة والنظافة من ان يمروا فيها لملاحظة طرقاتها وغيرها . فالناس ان كانوا فى هذا المقت والبلاء فذلك من أثر هذه الاحوال مع أن هؤلاء هم أصل الشعب وخلاصة الرعية الذين يلبون الامر بدفع ماعليهم من جميع الاقساط من عوائد وأموال مقابل نظام البلدة والعناية بها . ولقد أدى هذا الحال الى رخص أثمان العقار والارض والبضائع والامتعة كما أدى حب التقليد بالناس من جهة أخرى الى ان عكفوا على الاجانب يستحسنون كل ما جلبوه حتى اصبحت بحيث يعسر عليك ان ترى أحد الامراء والوزراء يستجلب فى السنة فضلاً عن الشهر شيئاً من بلده للوازم داره . فانقطع المدد وتعطلت الاسواق ووقفت الحركة وفسد ماكان موضوعا ووضع ما كان فاسداً ولا

حول ولا قوة الا بالله

أنظر لحب التقليد الاعمى كيف دعى الخلق للخروج عن حدهم وأوجبهم ان يجهزوا على معتقداتهم وعاداتهم وشرفهم واحسابهم وانسابهم . قد استسهلوا الدخول فى كل شئ حتى أمر الزواج فترك الناس بنات الاكفاء ذوى الحسب والنسب والتسرى الذى هو نهاية ما كان يسمع به فى التوسع واندفع اولاد الامراء وأبناء البيوتات الى التزوج بنساء الافرنج غير ملتفتين الى حسب أو نسب حتى اصبح الامير يصاهر البنكير وأصبح من ابتلى من القديم بزوجة مسلمة فى حسرة على حجابها وعاداتها

جذبهم الاجانب بما كلفتهم به من العوائد الى ارتكاب الديون فخرجوا مما تحت ايديهم من الاموال ونزعوا ما فى صدورهم من الاديان وما فى نفوسهم من القواعد والعوائد وكرهوا لغتهم وتقاليدهم وتعاليمهم وانكبوا الى بلاد الاجانب يضن الواحد منهم على أهل بلده بالدرهم ويسمح لاولئك بالدينار

أنظر للخمر وما أدت اليه من البلايا . فقد كان شاربوها منذ سنوات فئة قليلة من كبار أهل المدن الكبرى وكان تجارها على قلتهم يقطنون تلك المدن فما زال الداء يسرى ونهر الخمر يجرى حتى امتلأت نفوس القوم بحبه ووفود بائعى الخمر يفتح بعضهم لبعض الطريق حتى سكنوا القرى والنواحي والكفور والمدن وأصبح لهم في كل بقعة بيت أو مخزن أو دكان أو كوخ حتي اعتاد الفلاحون وأهل البلاد فضلا عن سكان المدن والامصار على شربها وقد كانوا أبعد الناس عنها وصرت أينما تولى وجهك تجد اعلانات موضوعة بالفوائد المترتبة على شربها . واصبح المصرى بقوة التقليد منساقاً اليها فشربها واكثر بلا روية ولا تدبير حتى ذهبت الارواح والعقول وضاعت الاحساب والانساب وذهب الشرف ضحية هذه الهدية الغربية . فلو ان كاتباً كتب ما أعدمته الخمر من هذه الجواهر فى هذه السنين الاخيرة لكان ف ذلك تذكرة لقوم يعقلون

الاوبئة خسائرها محصورة ولكن هذه الخمر التى جذبت

لها النفوس أو هى جذبتها وتم لها الادمان والانهماك عليها أذهبت من الانسان صفات الكمال والادب والشجاعة والمروءة لايختلف فى ذلك شرقى ولاغربى وأصبحت الامة فى أسوأ حال كما ترى

هل من طائف في البلاد المصرية وقراها متنقل من بلدة لاخرى ومن قرية لاختها ليرى بعينه مادة الخمر المنتشرة وشاربيها المنهمكين فى شربها بلاحد لا شريعة تردعهم ولا قانون يرجعهم ولا حكومة تردهم ولا ضابط يحكمهم والبلاد باهلها مسوقة الى الخراب عدا مصائبها المحيطة بها من كل جانب

أنظر الى عاصمة البلاد موضع الحكم والحاكم ومحل القضاء والافتاء ومنبع القوانين واللوائح تعجب من هذه الحانات المتخذة فيها والخمر المنتشرة بين اهاليها وتزاحم الشاربين عليها وسريان دائها فى كافة الطبقات من الامة حتى لم يسلم من شربها غنى ولا فقير بل استباحها الكل حتى من كانوا متمسكين بالمبادئ الدينية والاحكام الشرعية .

وبائعوها قد قاسموا الناس فى ارزاقهم وأجرهم بل تعدى ذلك لاملاكهم واطيانهم

يعجب الانسان من حال هـذه الامة التى كأن الله سبحانه وتعالى نزع منها عقولها حتى استحلت ما هي فيه بل جعلت المحرمات من القربات فان أهم اسواق الخمر رواجا هى أسواقها في الموالد كأنما أصبحت من ضمن معارض الخير التى تقيمها الناس يحيون شعائرها . وكأن المخافة من الله والحياء من الناس واتقاء ملامة الخلق أصبحت لا وجود لها . تراهم كأنما نذروا انفسهم ليقيموا أسواق الفساد فيها . وأصحاب المكانة وذوى الاعتبار لافرق بينهم وبين الفلاحين الاصاغر الحفاة العراة لان الكل جالسون وأمامهم قنانى الخمر مع ان أغلبهم لا يعرفون لها طعما ولو سأل أحدهم سائل ماذا تفعلون لقالوا نفعل كما تفعل الامراء والسادات

أغفلت الحكومة كل واجب في هذا الامر وتجاهلت عن كل حق عليها للامة وتبرأت من أن الاهالى هم أولادها وهى المسئولة عن صحة الشعب البدنيـة فضلا عن الجواهر

العقلية التي أشد مفسد لها شرب الخمر وستبقى الحكومة ساكتة حتى تمسى حاكمة على طائفة من الخلق الواحد منهم اما مجنون بالفعل أو فى حكم المجنون

فقلت لصاحبي واين مستقر هذه الحكومة وما هى صور هؤلاء الحكام . والى اى طريق من طرق الحكومات ينسبونها فان الروح بلغت من حديثك الحلقوم . ايحكم هذه البلدة اعداؤها حتى اختلفوا فى المشارب والمنازع كما اختلفوا فى الهيئات والمجامع . واذا كان فى كل ملة سادة اعلام هم مصابيح دينها . ونباريس يقينها . ونجوم ارشادها . ورجوم الحادها . ونصراء حقها . وحلفاء صدقها . فاين علماء ملتكم . يهدون هؤلاء المارقين ؟ واين حكامكم يمنعون الضالين ؟ فقال لا تعجل فقد اقتربت الساعة التي اريك فيها هيئة الحكومة ومحل حكمها . وصفة حكامها . وكيفية احكامها . فانهم الآن يتهيئون لتشريف دست مناصبهم وأراك سعيداً لان اليوم يوم الاثنين ولهم في مثله وفى يوم الخميس من كل اسبوع اجتماع تقضى فيه مهمات الشؤون في جلسة فيها مدار محاضراتهم

فانتظر وعما قليل ترى القوم مجتمعين . ثم تراهم فى مناصبهم منفردين . فتقف على حال الوظائف والمناصب وارباب المقاعد والمراتب الذين تقام بهم حدود الاحكام . وتفتخر بذكر اسمائهم الاقلام . وتستقيم بهم الامور . ويتوقف عليهم نظام الجمهور . وتشرق بهم انوار العدل . وتحلى بهم اندية الفضل . بل هم سادة الاقطار . وقادة الافكار . وساسة الامم . وارباب السيف والقلم . واهل الرئاسة والزعامة . واولو العزة والشهامة . وتنظر كيف يحكمون . فقلت عجل بى لأرى هذا الحال فأشار الىّ بان التفت . فاذا دور فى طبقة الوسط قليلة الخدم والحشم . عديمة المظهر الواجب ان يتخذه امثال من وصف لى من الحكام في مدينة مثل هذه المدينة وعلى ابوابهم عرباتهم لم تزد شيئاً عن غيرها من المعتاد . بل ربما قلت من جهة التعهد بالنظافة . فقلت لصاحبي لعلك أخطأت الامكنة وجهلت مساكن هؤلاء الاخيار ؟ قال لا انما هؤلاء يتشبهون بالاجانب من كل جانب حتى فى المسكن . ويود احدهم ان لو اتسع نطاق التقليد بأكثر من هذا فينتقل

الى نزل عام فيكترى فيه ناحية يقيم فيها هو ومن يتبعه أو
قسما من منزل مشترك كما تفعل الغرباء عندنا ليخلص من
ورطة البواب والحجاب ويستريح من معاش السفرجى
والفراش . ولا يبالون بان طوائف الخلق وعامة الناس هنا
يهزؤن بهم من هذه الاحوال فاصبحوا لا يرهبونهم لتجردهم
عن مظاهر الابهة الواجبة للحكام . ولا عجب فانهم قصار
العقول بعيدون عن ادراك ما وراء هـذه المشاهدات . ألا
ترى ان الله عذب بني اسرائيل بالعذاب العاجل لضعف
عقولهم واحال العرب على العقاب الآجل لبعد مداركهم ؟
ألا ترى ما تفعله مع الطفل من الضرب والاذى على اثر الذنب
الذى يقع منه وما تتوعد به خصومك من الرجال ؟ هؤلاء
ظنوا العالم سواء فاحالوهم جميعاً على القانون فنسخوا الخشية
والرهبة من القلوب وتصوروا ان ذلك منتهى العدل الذى
يمكن ان يجوز وتوعه فى بلاد أخرى . فقلت عجباً واى
عجب ! ثم بعد قليل خرج هؤلاء السادة من قصورهم ولا
خروج البدور من آفاقها . فتأملتهم فاذا بهم وصلوا فى الملبس

لحد البساطة حتى اشبهوا كل انسان واصبح كل انسان يشبههم : لباس قصير فوقه رداء صغير استدعى خفة الحركة فى السير فأسقط عظمة القدر والحشمة وأضاع أبهة الحكم ووقار المنصب . ثم ركب كل منهم وسار مستنشقاً للهواء على ضفاف نهر يقرب من تلك المنازل تشحيذاً للافكار وتحريكاً للطباع . ثم عادوا قاصدين دار الحكم واحداً بعد واحد . وهو على ما يراه الناظر محكم التشييد . متقن البنيان . مهندم الاركان فاجتمعوا في محل اوصد بابه . ووقفت عليه حجابه . وصاروا يتراطنون . فقلت لصاحبي ما هذا فانى لا أفهم من كلامهم شيئاً . فقال ان لكل من هؤلاء مضاربة في ربح وشركة فى مال وتداخل فى تجارة فهم يتكلمون الآن في خاصة انفسهم من جهة ذاك . فقلت ظننتهم ظنوا شيئاً ازعجهم أو توهموا تغييراً فى السياسة العامة فهم يعدون الجواب لما رأوه . أو ان لديهم مشكلا يفحصونه ليقفوا على لبه ليناضلوا عن الحق بالحق . ثم لم تمض لحظة الا وقد دخل عليهم شاب يطير نشاطا فخيامهم وحيوه . ثم تبعه آخر وآخر

حتى تمت الهيئة من الحكام ومستشاريهم واخذوا فى المذاكرة فأخرج كل واحد من اولئك المستشارين ورقة كانت معه فيها ما رآه من المشروعات الجديدة فى نظارته وما يريد ان يقرره من الاجراآت الجديدة . وهكذا فعل الثانى والثالث حتى انتهى العمل فى أقل من لحظة بالتصديق عليه . وأمر برفعه للحاكم الاكبر لاقراره وتنفيذه . ثم اخذت الحكام تبدى الشكر لمبتدع تلك الاصلاحات ومخترعها ومقترحها والقائل بها . والحكومة بما وقع في هذه الساعة من هذا التقنين وما تقرر فيها من هذه اللوائح فقدت نفوذا كبيرا وخسرت مالا كثيرا . وانحطت شيئا عظيماً . واستلب من يد هؤلاء كثيرا مما كان فى سلطهم . ثم انصرفوا كل الى دست وزارته . فكدت أصعق وقلت : لا أقلّ من ان يقفوا أمامهم موقف المناظرة كل يبدى برهانه حتى اذا ما انتصر فريق رضخ اليه الآخر ؟ قال كلا . ولا هذا لان آدابهم تمنعهم عن الظهور بالرأى امامهم . قلت ايعلمون مافعلوه أم يجهلون ؟ فقال بل يعلمون ويسكتون . واشار الي بأن اتبعهم بنظرى

فقعلت . واذا بهم فى تلك المراكز صور لتصحيح الشكل . وكل مستخدم سواء كان فى المراكز أو الفروع مستشعر بهذا المعنى . واذا الخطابات والجوابات ذات البال صادرة أو واردة جميعها واردة على ذلك المستشار لا يفتى فيها غيره . وناظره منفذ لما يقول قاض بما يأمر . وكذلك الترقيات والتعيينات والتنقلات . وبالجملة كل ما ينفع أو يضر بالمستخدمين أو بغيرهم بيده يفعل فيه ما يشاء . والامة قد ادركت ذلك فتقاتلت على ابوابهم تلتمس منهم قضاء أمورهم وقد اصبحوا بما وهبهم امراؤنا من النفوذ يقيمون الناس ويقعدونهم . والناظر كما قيل :

الارض تعلم انه متصرف من فوقها وكأنه من تحتها

أمير فى منصبه لا تصدعه عامة الناس . ولا تخالجه أدنى وسواس . يلعب نهاره في سبحته . أو يقلب فى علبته لا يهمه الا قضاء سويعات الاجتماع مع اولئك المستشارين على خير لا يعرف طعم البؤس . ولا خشونة الملبوس . يرتاض طرف النهار . على شطوط الأنهار . وينام الليل مع الحور . بين

الترائب والنحور . وينصرف عند المقيل . الى العارض الهطيل . فى ظل ممدود . وطلح منضود وماء مسكوب لايعنيه من ليس يعرف لنفسه قرارا ولا يذوق النوم الا غرارا

تفارع ابطال ابن خاقان ليله الى ان بدا الاصباح لا يتلعثم
فيصبح من طول الجلاد مخبلا وكان قديماً دهره يتنعم

وقد وسعوا لهم المجال فاتخذوا لانفسهم لمعالجة سآمة البطالة عنهم حرفا غير هيئة الحكم والحكام . فدخلوا في كل شركة بسهم وفى كل جمعية بقسم. وقالوا في انفسهم : قد فاتتنا عزة الحكم . ونفاذ الامر . وصولة الخاتم . فلا تفوتنا الثروة ففيهم المتجرون والمزارعون والمرابحون. والمرتهنون. والدائنون والحكومة كأنها تراث رجل مات عن قصر تلقفه ايدى الطامعين من كل طرف فمهما وجدوه أخذوه

قلت ويلك ماهذا الذى أراه ؟ قال هذه هيئة الحكومة قلت يالنعجب قال لا تعجب فمتى عرف السبب. بطل العجب اعلم ان الحكم في هذه البلاد كان لحد سنة ١٨٧٧ حكما

استبداديا محضا يرجع فيه لرأى الحاكم المطلق المتولي عليها.

وانت تعلم ان الحاكم المستبد يمتنع بوجوده أمور ثلاث هي من أعظم أسباب ترقى الامم. أولها. الظهور بالرأى خشية اخذ القائل بما قال وثانيها الظهور بالاجتماع خشية تفريق القوم. وثالثها الظهور بالمال خشية المصادرة. وقد ابتلاها الله سبحانه وتعالى بنفاد قدره وقضائه بحاكم مثل فيها هيئة الاستبداد تمثيلا جمع عليها به صنوف البلايا والاكدار حتى أدى ما فيه من القسوة والسطوة لخوف أرباب النهى والأمر منه أركان دولته عن التعرض بالنصيحة اليه فضلا عن عامة رعيته فعدمت الاهالي فى مدنه أسباب التقدم الحقيقي ولم تتمكن من ان تتخذلها طريقا للاصلاح فى حين ان كل أفعالها كانت مؤدية للهلكة وصيرورتها الى الخراب الذي صارت فيه الآن فهو الذى أكره الناس على الخروج من ديارهم والتشبه بالاجانب من كل جانب وهو الذى ادخل فى البلاد عوائد غيرها وحمل اليها ما ليس منها وازال عنها ما كان فيها فاضطربت ولم تستقر على حال . وهو الذي حسن للامه هذه التقاليد وفتح لها باب الاستدانة والاستقراض الذى مكن

الاجانب من أموالها وأملاكها . وهو الذى أزال خمار الادب عن الوجوه وساعد على انتشار الموبقات من كل طرف وأجرى بحور الخمور وسير مواكب النساء متبرجات فى عمـوم المتنزهات حتى فسـدت الاخلاق وتقطعت روابط الادب والحياء . وهو الذي خرّج البلد وأهله الى هذا الحال

ألذى تراه يسر الجاهل مرآه ويحزن العاقل منتهاه

امور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد انتهي أمره بأن اكرهه الدائنون الذين أصبحوا ملاكا على دفع ما عليه فلما ماطل اضطروه للاستقالة وقد كان فورثنا عنه فيما ورثنا هذه الهيئة بالاساس الذى وضعه باجماع آراء أصحاب المال والنقود فى سنة ١٨٧٨ وتركبت هذه الهيئة من تسعة رهط يفسـدون فى الارض ولا يصلحون منهم واحد تضاف اليه الرئاسة . والحاكم الاكبر يحكم بهم ومعهم وجعل لكل نظارة فروعا فجمعت هذه الهيئة أوصال البلد . فمنها نظارة تتبعها المديريات والمحافظات . ومنها ما يتبعها محاكم متعددة تحكم فى درجات مختلفة . ومنها ما يتبعها الجاسوس وجند

البلاد . ومنها ما يتبعها بث العلوم والمعارف والفنون والصنائع . ومنها ما يتبعها التحدث على الاراضي من جهة الري والسقي وفتح الخلجان والترع . وهذه الهيئة هي موضع الامر والنهي في كل هذا فالقابض عليها قابض على جميع تلك الفروع بحيث لا يقع فيها الا ما يريد

فلما تولى بعده من تولى أبقى الادارة سائرة على هذا الحال وزاد في التحبب والتقرب الى أولئك الاجانب بان ضمن تنفيذ مقاصدهم سياسية ومالية بلا معارضة وأراد التقرب لهيئة الامة ليقال انه مخالف لعمل من قبله فمنع الحجاب وسهل المواصلة بينه وبين رعيته ورفع الكثير منهم الى المناصب بالرتب الرفيعة .

وأبطل قاعدة القضاء القديمة وقنن لها القوانين المنتزعة من قوانين الدول الاجنبية

وأباح القول للناس عما شاؤا فنشأ عن هـذا الانقلاب السريع مفاسد جمة لم يتأت معها الوصول للغرض المقصود كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي . وجاء من منع الحجاب

وكثرة التردد انتقاص السلطة والاستهتار بها وسهل على القوم أن يروا الحاكم ويراهم ويكاشفونه ويكاشفهم والامة على حالها من النقص لم تفق من صولة الاستبداد الذى صرعها فطاشت وجاء من رفعه أقواما بالشهرة والاستحسان خفض تقاليد الحكومة وألبس التاج من لا يستحقه . وأصبحت الهيئة كعود قصب السكر أسفله خير من أعلاه . وجاء من اباحة القول ان قال كل انسان ما يشتهى فاضطربت الافكار وأصبح الكل أساتذة . والكل أفاضل . والكل مربين . وقامت بين الكل نقطة التنافس بالوطنية والتفاخر وهم لا يدرون معناها. وجاء من تقنين القوانين على المنهج الاوروباوي الاستهتار بجانب السلطة والدين بمقدار ما زيد فيه . وعلم عامة الناس والسواد الاعظم وهم الباقون على فطرة الجهل ونقص الطبائع أن الحكام أصبحوا مقيدين وانهم معهم امام القانون سواء فاقتصوا منهم بما قدمت ايديهم أزمان كانوا مدفوعين بيد الاستبداد القديم على ظلمهم بعضهم بالحق وبعضهم بالباطل. فاعتزل كبار الامراء والذوات الوظائف لانهم رأوا من العيب

وجودهم مع هذا الشرج في صف واحد . وبعضهم اعتزل الخدمة مستقيلا . وبعضهم تركها بحسب ضرورة الحال لتغيير شكل الحكومة ونظامها وبقيت الهيئة في حال أوقع التباين بين الاطراف وأصبحت البلدة احزابا من قديم وجديد . وتركى ومصرى وجركسى واجنبي . ثم زاد هذا الامر حتى وقعت البلدة فى الفوضى التى قضت عليها بالخراب التام العام واستحقت للتأديب بعصى أوروبا التى استنابت عنها الدولة المحتلة لتؤيد سطوة الحاكم التى انتقصت أو تلاشت وتعيد النظام فابقت الحال على ما هى عليه مدة من الزمن ثم ترقبت حركات الامة فما تنبس بكلمة حتى تزيد فى بسط يدها عليها حتى انتهى الامر بان تغيير هذه الهيئة التى تراها أو عزلها لا يكون الا باتفاق الطرفين . وبما انهم هم الغالبون أصبحت الطاعة ولا شك مفروضة علينا لهم ولو كان في ذلك مخالفة الحاكم الاكبر ثم ما زالوا يتداخلون حتى عينوا لكل هيئة مستشارا : القول قوله والفعل فعله بل أصبح بمنزلة القيم على المحجور أو الوصى علي القاصر وصاروا يقضون فى الامة بما

يريدون بغير أن يظهروا بمظهر الآمر أو الحاكم بل يوعزون. كما رأيت بما يشاؤون وعليهم الفكر وعلينا العمل وظاهر الامر اننا فى غاية الاستقلال حتى انهم رتبوا في البلاد مجلسا دعوه بالشورى عاملوه بحديث (شاوروهن وخالفوهن) فيجتمعون وينفضون والله أعلم بما يصنعون ولا رأى لمن لا يطاع. ويكفيك دليلا على الانحطاط ان أعضاء هذه الهيئة يحضرون لها وهم يجهلون ما سيتذاكرون فيه حتى كان ذلك في جلسة اشتملت على الاقرار على فتح بلاد وسحق عباد كالسودان. وانى سمعت أشياء من بعض ما قررته هذه التى تراها ارضاء لهؤلاء أخبرك بها لتمام عجبك واستغرابك ولتعلم انك لو سبرت غور مشاهداتك وأنفذت اشعة أفكارك الى الاحوال الخفية لرأيت داء دويا وفسادا عنصريا آخذين فى ملاشاة وجودها عاملين على اطفاء نورها

صار أبناء البلاد أشد أعوان الاجنبي فهم يجهزون عليها ويسرعون فى ايصال البلاء اليها بما أشربوا فى قلوبهم من العوائد والاخلاق التى جعلت مواطنيهم فى نظرهم ألد الاعداء

وأشد الخصوم . وأصبح الامراء أصحاب الحل والعقد من قديم يتسترون كأنما بهم وصمة وذلك من الاباحة التى وصل اليها أرباب الاقلام فى جرائدهم التى هى على هوى المحتلين وعدم وجود قانون تعتدل به هذه الحرية . لانهم يريدون استئصال الجاه القديم سواء كان من بيت الحكم او اتباعه ليكون الناس سواسية . فان شذت طائفة لا تجد لها ملجأ غيرهم اذلم يبق فى الجمهور ذوجاه عظيم تتألب الامة عليه . باعوا ممتلكات الحكومة ومهماتها وآلات حربها ومعتقلاتها ومصانعها ومخازنها والناس صامتون على اختلاف صنوفهم لا ينبسون ببنت شفه

تعقد الشركات وتباع العقارات والناس رجلان : شيخ قد قنع بما هو فيه قناعة البهم فلا يريد ان يشارك هذا الجراد المنتشر . وشاب من خلفه مناجل المال التى أقامها سوء التسامح في البلاد من مضارتها ورقصها وقمارها وغنائها ونسائها وخمرها وخمارها والقوم يأكلون البلاد ويتنقلون بالعباد ولا حساب ولا عقاب وكانى بك غير قانع بهذه الامور تريد ان أريك

بعض الذى ذكرت عيانا .

فما ذا يقول المحابى فى تسليم البلاد الطويلة العريضة التى قدرت بقارة فرنسا والمانيا والنمسا مساحة . والهند ثروة بعد فتحها بمال البلد وأهله . أو بيع ما كان للبلاد من البواخر التى تمخر فى البحر تمزيقا للعلم الذى عليها لفك رابطة الاتحاد وعلاقة التابعية . أو تسليم الملايين من الافدنة بما يتبعها من الآلات والوابورات والمواشى والمهمات وقد كانت موردا لارتزاق الالوف من المستخدمين والمزارعين والموظفين والمتجرين والبائعين . أو ابهاب الاسواق لشركة محتكرة تضرب عليها الضرائب المختلفة بما يريده أصحابها . أو التصريح بانشاء بنك جديد احال ثروة الوطن الي أوراق ستبتلع خزينة البلد ومال اهله واوقافه حتى لا تبقى فضة ولا ذهب اوعمل خزان للمياه يجرف بأموال الخزينة ثلاثين عاما وسيجعل أرواح عشرة ملايين من النفوس فى يد آمر : القضاء قضاؤه والامر أمره . وستحج اليه الناس كما حجت لزمزم تبتغى قطرة من مائه . أو بيعها كل شيء لهؤلاء الاقوام حتى ملح

الطعام . وهذه الامة الخائبة الرجاء فى حكامها الضائعة الآمال في ابنائها الا تدرى ماذا تفعل ولا تعلم ما تقول.

ضرب اليأس والقنوط اطنابه . والجم القوم بلجام الخيال فلا تجد ناصحا يتقدم بالنصح فى شيء من هذه المعايب ولا يستوحش منها كانما مناقشة الاجنبي حسابه ضروب من ضروب القتال . انظر الى قصور الاغنياء والامراء .فأخذت استشرفها وهو يرشدني عنها بيتاً بيتا . يقول هذا بيت فلان وذا بيت فلان.فوجدت شيئا يعد على الاصابع وهذا القليل ممن كان من أصحاب الامر والنهى فى سابق العهد بعضهم سئم حال الحكومة والبعض فصادته ثم حسنوا لهم التخلص منها فباعوا ما كانوا يستحقونه من معاشهم حتى لا يوجد لهم اسم فى دفاترها الا مع المموِلين ولا تكاتبهم الحكومة الا فى طلباتها فاصبحوا هم والزراع أمامها سواء . وانقطع املهم وأمل الناس من عودتهم الى الخدمة وخلصت وظائف الامر لمن هذبتهم الحكومة الحالية باخلاق احتلالها وربتهم ورقتهم ودرجتهم وحكمت بهم ومعهم فيما تريد . وقد بقيت فيهم

عوائد البلاد فتراهم يتزاورون فى أخريات نهارهم وبعض لياليهم ولكنهم قصروا الكلام فى هذا الاجتماع على شؤونهم من فلح وزرع لا يتعرضون لشيء من هذا الواقع ابدا سآمة فيه أو ضجراً منه كأنما البلاد ليست موطنا لهم واذا فرط القول من أحدهم وألم بحكاية اتفق وقوعها من مثل هذه العجائب مالوا به فى الحديث الى حيث يريدون من الكلام على خاصة أنفسهم وقد رضوا بهذا الفراغ والابتعاد عن العمل مسرورين لقضاء باقى حياتهم وهم متمتعون بها يجدون كل يوم من أسالب الملاهي ما يشتهون ومن الاشغال الخصوصية ما اليه يحنون اما بالانتقال والنظر الى ثمرات مزارعهم واما بما فى منازلهم من دواعى الانس والبشر والاجنبى رضى منهم بهذا الخمول وعبث فى البلاد كما أراد ولا عبث الجراد

وحكام البلاد أوصدوا دورهم واتخذوا النوادى الاوروبية المعروفه بالكلوب مجتمعاً لهم ولم يبق فى المنازل الا قليل من الخدم لرعاية الحرم فمتى توارت الشمس بالحجاب لبسوا مع الافق سواد الاهاب وطاروا كالطيور الى تلك الاوكار . وقد

قصروه على أنفسهم فلا يدخله من كان أجنبياً عنهم الا اذا استصحبه أحد منهم ظانين انهم بعيدون عن أعين النقاد من العباد على انهم اصبحوا فى وسط هؤلاء الاجانب فى دائرة انتقاد غير محسوسة لهم يحفظ نقادها الحسنات والسيئات ولا يتغافلون عن أقل الحركات وهم من بسطاء انفسهم قد كاشفوهم بكل شيء من شؤونهم وأمرهم دائر فيها بين المقامرة والمعاقرة والمرابحة والمتاجرة وقليل بالمسامرة والمحاضرة فهم فى كلياتهم لايخرجون عن مساواة أى متمول فيهم ويزعمون ان ماهم فيه هو السعادة التى لاتماثلها سعادة قيام بحق الوظائف وابتعاد عن الخلق وخلاص من الناس

فقال لى صاحبي أولئك السلف . وهؤلاء الخلف. فعلى من تتكل فى انقاذ البلد قبل التلف ؟ وهاك أيضا أهل القطر عامة . فأجلت بصرى في البلاد فوجدت اصحاب المظاهر منهم من شغلتهم شؤونهم وبلاياهم عن كل شئ فما منهم الامن ارتبط مع جماعة من أرباب الاموال اما فى ايجار أرض للزراعة واما للاستعانة على اتمام شراء شئ يجاوره ويحاده . واما الدين

عليه دعاه مظهره لارتكابه حتى ان كل شبر من أرض له سطر فى صك قرض. والمظاهر التى تراها من دور وقصور وخيل وبغال انما هى على حد قولهم (مستورة بالبركة) وعامتهم رضوا بالاكواخ التى هم فيها لايبالون بحر الشمس وعصف الرياح. يصبح الرجل مع العجول ويبيت مع المهارى ويسرح مع البقر وقد شغلوا عن تحريك عقولهم بتسخير أبدانهم. فترى الفلاح على هذا الحال ولا تضيق له نفس ولا تتولاه سآمة فتحكم عليه بانه الهيكل الذى افنى العاذلين والظالمين من عهد الفراعنه الى الان وهو باق بنسخته لايتغير

فلم اكد أعجب الا وصاحبي يلفتني الى العلماء فاذا هم ينقسمون أيضا الى أقسام: جماعات ادخلتهم الحكومة فى خدمتها واتخذتهم سلما لما تبغيه فاصبحوا من زمرتها يعلمون الحق ويكتمونه وكلهم متطلعون الى الترقى والوصول للمناصب الكبرى

وقسم رضى بالانزواء فهو لا يدفع ضرا ولا يجلب خيرا وقسم فسح لهم فى العيش ولم يتخطاهم عهد الشباب فرحين بما نالوا من علامات الشرف ووسامات المجد. شغلهم التنقل فى

بيوت الحكام . والامراء العظام . وأهل الثروة دائرين فيها على هوى كل من لاقوه من أهل الحل والعقد ومرادهم من ذلك وظيفة ينالونها ليصبحوا مثل أولئك فى نظر الحكومة

فقلت وماذا بقى من اوجه الامل بعد هذا؟ قال ننصرف الى حيث المجتمع العمومى فنقضى الليلة فى منتديات المدينة لترى حال السواد الاعظم وخدمة المصالح وأرباب الاشغال فتتمثل لك شؤون المدنية فى هذه المدينه وترى بعد الذى رأيته ووقفت عليه من أمر الحكومة وأمرائها وأغنيائها وعلمائها قوة هذا العامل الذى بطلت فى جنبه العوامل وتعلم الى أى درجة وصل صرف الاوجه عن النظر في شؤون البلاد والى أى حد قبض على الاعنة والرقاب وهل من أمل للقطر أو رجاء وهل يمكن ان ينهض احد لتجديد ما اندرس من آثار الوطن او صوت ينادى باصلاح تخف اليه طلائع الاجابة من أى جهة فقلت الامر لك فصرف وجهى حيث أراد وقال لى انظر فنظرت فوجدت النوادى مزدحمة بالخلق وكلهم يتطلع لاجتلاء الاخبار وما تم على العالم فى يومه ليكون به من العالمين . وهؤلاء خواص

الخدمة مما هو اكبر من العامل وأقل من الحاكم الآمر. فلم تمض لحظة الا وطوائف باعة الجرائد الذين يزيدون عن الخمسين عداً ينادون بها. فقلت هنا العمل ومحط الامل. وانشرح صدرى لانها تمثل في ظاهر أمرها نهضة أدبية لنفوس الامة لاقبال الناس على القراءة والكتابة بهذا الحد فلم نلبث حتى صار فى يد كل جماعة واحدة منها يقرؤونها بشغف قل ان تجد له نظيرا. الا فى بلاد غرس فيها الاستعداد الفطرى وهمت نفوس أهلها بالظهور بهذا المظهر السعيد. فأشرت لصاحبي ان يختطف لنا شيئا منها وكان ذلك فأخذت اتفقد تلك الجرائد واذا هى شاملة .ابسط الاخبار من جهة الحكومة كاخبار الاجازات والترقيات والتنقلات واهزأ الحكايات من جهة البلد كالولائم والمآتم واحتفالات الانكحة والعقود وما شاكل ذلك. ومسرفة كل الاسراف فى أحاديث مجلس لندرا وبرلين ومحاكم باريز وبطرسبورج. مسهبة في تفاصيل اتحاد الصين مع اليابان معترضة على بعض شروط الصلح بين أمريقا والاسبان. وغير ذلك مما لا يهم ولا يفيد

ولا يسعد ولا يشق . والحالة الحاضرة بعيدة عنه بأسره . وجرائد اخر تسب فى هيئة الحكومة غير مشفقة على نفسها لانها تعدت الحد . واستوجبت الحد . لا تبالي بانسان . ولا سلطان حتى يخال القارىء انها موعزة لمثل هذا القدح ابتغاء شيء تناله . فقلت لصاحبي ما هذا ؟ اين نصيب العامى من الارشاد والتنبيه على الفوائد والاشتغال بها ؟ أين الكلام فيما نزيد سعادة الوطن والتنقيب على ما تحسن به احواله ؟ اين الكلام على احياء الصنائع والتشبه باهل الفلاح في عقد الجمعيات المفيدة ؟ اين الكلام على تهذيب النفوس والاخلاق واصلاح الآداب والعوائد التى ظهر فسادها والموبقات المنتشرة وسوء التربية التى فشت عاهاتها وازدادت آفاتها وتفاقمت رذائلها والمنكرات التى وقفت فى سبيل تنوير الاذهان فسدت طريق الكشف على البصائر والاضاليل والاباطيل التى نمت سلفاً عن خلف ؟ قال كل هذا مسكوت عنه لا تذكره تلك الجرائد ولا تلم بشيء منه مع انها على ما ذكره علماء الوقت اثبت تأثيرا في النفوس من غيرها لدوام تلاوتها وملازمة

قراءتها ولأنها نعم المادة لتفقه الناس وتنبه عقول العامة فضلا عن الخواص

الجرائد هي الاساس الاصلي للتربية الاهلية لان عليها مدار التقدم في المصالح العموميه المفيدة والمناجح القديمة والجديدة . الجرائد هي المدارس الكلية المفتوحة لابناء السبيل كاشجار في الطريق مثمرة لايحيط بها سور ولا يذودعنها حارس يتناول من ثمرها الوارد والمتردد. الجرائد ميزان الامم ومعيارها ولكن ضاع عمل وخاب امل ففي غير هذه البلاد الكتاب الذين تنتظر اقوالهم في صحائفهم . وتسمع رسائلهم في جرائدهم . وترجي نوادرهم .وتخشى بوادرهم . وهناك الهذيان الساقط والبلايا المضحكة . فقلت له وماهذه الجرائد التي ملات صفحاتها بالمثالب الشخصيه كانما هي في يد محررها (سيف في يد مجنون) يصول به من غير روية ولا ادراك فزادوا في الوقوع في الاعراض والتطاول على الاحساب والخروج بالشتم والبذاء؟ الا يوجد في البلد حاكم يوقف هذا البلاء ويضرب بين الاعراض وبين هذه الحرية الفاسدة بسور؟فقال ان هذا ليس بالشيء الجديد

واحلف لك ان لو جمعت ما قيل فى السنين الاخيره فى هذه الهيئة ومايتبعها لجاء فى مجلدات ولزاد عما قيل في اليزيد والشمر والحجاج. فقد وقف الناس على اخبار الدنيا من تاريخها ورواة أخبارها ورأوا ما رأوا بأعينهم من احوالها فلم يقفوا على أدب ولا تأديب من هذا القبيل أبدا. وقد طال المدى وما تأذى المشتوم ولا كل الشاتم والقائل لهذا يظن ان هذا يصلح من أخلاق أولئك المشتومين ولم يعلم انه بفرض تأثيره فيهم فهو على قدر ما يصلح من أولئك يفسد من أخلاق آخرين بل يصد القراء عن اقتباس مافى الجريدة من الفوائد للاعراض والفتور الذى يتولى النفوس عند مطالعتها فتبور بذلك المصلحة العامه المقصودة منها. ثم أطلعني على جرائد أخرى تركت كل هذه المناحى واتخذت مسلكا آخر لا يعلم كيف هو. امتلات بشئ من الخلط والهزيان والتكلم بألفاظ لم يسبق لها ضريب في شئ من بلاد الله ولا سمع بأن مثل ذلك يطبع وينشر وتباع منه الالوف في كل يوم الا فى هذه البلاد التى هي بلاد الغرائب والعجائب فسألته عن حال محررى هذه الصحف بين رجال العلم

فقال، ان فيهم من ترتفع بهم مقادير الجرائد ولكن المتطفلين زاحموهم فأسقطوا المنزلة وأصبحوا عقبة فى طريق تقدمها. فهى محتاجة لاصلاح حتى تكون بمنزلة المربى لهذه الامه المضللة التى طفرت حتي تخطت المقصد. وفاتت موضع الاصلاح وتعدت محل الفائدة الا من عصم الله. وكيف لا يكون ذلك وفى زمرة المحررين أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى

ثم استلفت نظرى نحو القوم فاذا بحرية فى الالفاظ تكاد لا تحلم بها أوروبا ظاهرين فيها بظاهر التقليد: فمن قائل فى الاديان. ومن متكلم فى مقام مولانا السلطان ومن ناقض رابطة أحكمت أو قاطع علاقة أبرمت وكل هذا ضلال أشربوه فى قلوبهم من سر الاحتلال ولمحت عينى فيهم حب التقليد حتي فى معاورة الانفاس ولو فى الخطأ واللحن بحيث لا تجد كلمة مستحدثة الا وهى دائرة فى خطابات جميعهم كانما هى تركيب جديد

فأخذنى العجب من حال أولئك الانام كما عجبت من حال أرباب الاقلام وقلت لصاحبى: اذا كان رأى العلماء أن تربية الكبير أمر عسير جداً الآن مناشئ العمل من العقائد والصفات

تكون راسخة فيه بالفعل فيصعب اقتلاعها او انتزاعها وقد طرأ
على كباركم من المعاشرة والتقليد كل هذه البدع والاهواء مالم
يطرأ على سواكم من أهل الارض حتى حجرت الابناء على
الآباء بدعوي السفه والتبذير وهم اسفه منهم فما حال صغاركم
الذين يتربون في حجورهم الآن . ويغذون بدرهم طول الزمان
ويندفعون الى كل فعل بطبيعتهم من غير تكلف اذلا ملكة لديهم
ولا اعتقاد فقال هنالك البلاء والويل و . وعدنا بكرة الثلاث نؤم
فيها حلبة المعارف وميدان العلوم لترى الاساس الذى عليه تبنى
والطريق الذى عليه تشاد وانصرفنا حتى انقضى الليل واشرق
الصبح وطلعت الشمس واذا به يناديني فلبيته ومشى فماشيته
حتي جاء الميعاد المخصوص واشار الى بالنظر فنظرت

فوجدت مدارس متعدده منتظمه منها ما هو للمبتدئين
ومنها ما هو للمترشحين

وتلك اسمها المبتديان وهذه التجهيزيه وفوق هاتين مدارس
أخرى منها للحقوق وهي التي تدرس القانون الجارى الحكم
به فى البلاد ومدارس للطب وأخرى للمهندسين وقد قسمت

فرقا فرقا ونظمت فصولا على ترتيب جميل فاقنع نظري هذا النظام الظاهري وكدت احكم على كل التلامذة الذين فيها بسعادة الدارين والوصول لغاية المطلبين فقال لي صاحبي مهلا حتى اشرح لك الحال فان الذى رأيت ناقص كما وكيفاً

فاما نقصه كما فلا شك عندك ان المدارس هى المربي العام فى كل أمة والواسطة التى تؤدى بكمالها الى رفع البلاد لاوج السعادة والذى ظهر فى هذه السنة من عدد من تقدم لالتماس الشهادة الانتهائيه أى البكالوريا ان المترشحين للامتحان فيها ٢٨٩ تلمذا قبل منهم ٦٨ فاذا وزع هذا العدد على مجموع الامة المصرية خجل الانسان من هذه النسبة ولم نشك في ان هذا العمل مقصود منه سد باب العيش فى أوجه المصريين لان التضييق الشديد فى هيئة التعليم يقتضى ذلك فقد كاد أولو الامر ان يضيقوها فى وجوه ارباب المصاريف فضلا عن القسم المجانى

وأما نقصها كيفاً فلان جميع هؤلاء النظار والمدرسين والخواجات وغيرهم من رجال الدولة المحتلة ووظائفهم فيها علميه فى الظاهر دينيه وسياسية فى الباطن والدليل على ذلك

ماراه في معاملة هؤلاء الاطفال الذين لم يبلغوا العشر فقد قرروا ان لا يقرأ احدهم من القرآن الشريف الاجزاواحداً فقط ولاجل ان يصرفوه أيضاعن هذا الجزء عمدوا الى جداول الامتحان فحذفوا منها نمر القرآن واضافوها على علم العربية عالة عليه حتى لا يجتهد التلميذ في حفظه لانه لا يزيد في نمرته ولا يرفع من درجته ثم عمدوا الي من فوقهم من التلامذة وسدوا عليهم باب اللغة العربيه ليميتوها ا‌تتعذر الحياة الوطنيه فمنعوا قراءة التاريخ وبقية العلوم الالية تأمل كيف اماتوا الهندسة والطب من هاتين المدرستين حتى أشرفنا على الخراب ولم يبق في كلتيهما ما يكمل عشرين تلميذا ومرادهم ملاشاة ذلك حتى ينقطع علم الهندسه فينفد مهندسوهم بالرى وغيره ويموت علم الطب أيضا من البلاد وأغرب شيء ان الملجيء لفتحهما لحد الان وجود مدرسين في الطب والهندسة لم تخلق لهم الوظائف المطلوبه فهم يقتاتون في هذه الوظائف التدريسيه حتى يتم لهم المراد ويتعينون في مناصبهم المناسبة لهم وتقفل هذه المدارس. ولقد أحس تلامذة هاتين المدرستين بذلك وبسد باب العيش عليهم فطلبوا الدخول

في مدرسة الحقوق (لان المتخرج منها ان لم تستخدمه الحكومة يجد رزقا حسنا من أوجه المحاماة وغيرها) فحسنوا لهم البقاء بكل الوجوه حتى ربطوا لكل تلميذ جنيهين استبقاءله فى تلك المدارس

أرادو أن يغلقوا باب التعليم أو يمكسوا نتيجته فيحيلونها من جانب السعاده الى جانب الشقاء فسدوا باب الارتزاق فى أوجه التلامذة فترى ألوفا من أولئك المتخرجين الذين قضوا السنين الطوال فى مدارس القطر واحرزوا الشهادات بختم الدورس ضاقت بهم معاطف الشوارع وأماكن اللهو معطلين عن الكسب مخلدين الى البطالة التى هى من شر المفاسد وليس المراد الان هذا القطر لا يلبث الازمنا يسيرا حتى يرى رجال مستقبله الذين كان يمدهم للقيام باعباء مهماته وانماء ثروته هم أنفسهم مصدر شقائه ووباله وخموله واضمحلاله

يسيئون من المرء تأديبه الدينى والدنيوى ثم اذا أخذ الشهادة وظن انه قبض على مفتاح السعاده أقفلوا فى وجهه باب العيش حتى تنتهى البلاد الى احدى حالتين: اما تهافت الالوف

من المتعلمين الى دركات الذل والمسكنة واما الاعراض عن طلب العلم كلية وأطفاء مصابيحه من البلاد لتعود لقديم حالها وتغشاها ظلمات بعضها فوق بعض

بماذا يجيب الانسان لو سأله سائل عن أسباب عقم العلم عندنا وصيرورته سببا للشقاء والخراب وهو عند جميع الامم سبب السعادة والفلاح وموردة للقوة والبأس والشئ الواحد لاينتج نفعا فى مكان وضررا فى آخر

أصبح التعليم عندنا قاصرا عن القدر الذي يمكن الانتفاع به . مقصورا على شئ من اللغات ونزر من الرياضيات لايتعدي مبادئ الجبر والهندسة وأشياء من آلات العلوم وكل هذا لاينشئ رجالا

صار المراد من المدارس نسيان الدين والعادات فترى التلميذ وهو يجهل مالا يجهله عاقل يدعى ان من فكره (انه لا يمكن النجاح والترقى الا بنبذ الدين لان أختلاف الاديان أضر بالشرق ضررا بليغا. وان السعادة الدنيويه لاتتوقف الا على التهذيب ومساهمة الاوروبيين فيما هو انفع وأسهل) وقد جهلوا

ان الاوروبيين يمهدون بالمدارس الى القسس غالبا وبالجمعيات الدينيه حتى يدخلها الوليد بلادين فيخرج بدين ولذلك فكثير من الاهل والعشائر يتمهدون أولادهم في الخارج فيحكموا ربط عقيدته . وقد خلت هذه المدارس من الصبغه الوطنيه والجنسيه لاستبدال اللغة العربيه بالاجنبيه فى التعليم والاستغناء عن الآداب العربيه بالآداب الافرنجيه للاعتياض عن المعلمين الوطنيين بالمعلمين الاجانب وهذه الاحوال غرست في قلوب المتعلمين اخلاق الامم الاخرى لانهم يتعلمون تاريخ انكلترا ويجهلون تاريخ تركيا ويدرسون تاريخ أوروبا ولا يقرؤن تاريخ العرب . وأورثتهم احتقار امتهم وجنسهم ودولتهم ولا بدع لانهم يجهلون قدرها وأصبح التلميذ يعلم انكلترا وهو مصري ويجهل مصر وهو فيها فانسد باب الخير الذى يرجى منه التعليم وانقطع الامل من الحياة الوطنيه لوجود هذا العامل العامل على اماتتها وقد أبطلوا كل ما من شأنه احياء الشعائر الدينيه بتهذيب الاخلاق واصلاح الاعمال وتقوية الروابط الجنسيه والوطنيه باماتة اللغة العربيه وعدم تلقي الفنون بها . وهذه الاحوال على

قرب زمن حدوثها قد أثرت فى الامه التأثير الفاحش الذى رأيته وسيكون تأثيرها فى الذرارى أكبر من ذلك وتستبدل آداب الدين بحرية الفساد والفحش وتقام اللغة الانكليزية مثلا مقام لغة البلاد وتمزق شعار الوطنية شذر مذر ويصبح زمام الاخلاق بيد الاجنبي فيهيئنا الى ما يريد . لم يبق على التلامذة الا التجنس بجنسية المعلمين والمربين . فقد مات الجنس وضاع الاصل الذى يرادا حياؤهما واعزازهما بالتربية وقد ابتلاهم الله بمرب (محب لذاته) وهو الداء الذى لا برء منه لان صاحبه شره فى الافعال لا يعرف العفة فيها جاف لا يدرى سبيل التزلف فتراه مضطربا لا يدرك جهة الاطمئنان. يفعل ضد الخير لانه هو والحر على طرفي نقيض يتحبب وهو عدو ويخاصم وهو محب ويتفق وهو مختلف ويختلف وهو متفق ويحجم وهو مقدم ويقدم وهو محجم . ويقول حالفا ولا يفعل ويفعل متجاهرا

أى ضلال بعد هذا . انك تسأل التلميذ عما قرأه وحفظه فى أى علم كان باللغة العربية فلا يكاد يجدجوا بالاختلاف أسماء البلاد والرجال والوقائع والفتوح عن الاسماء التى قرأ بلغتها ذلك

التاريخ ثم تسأله بالانكليزي مثلا فيلوك لك تلك الاسماء باداة مخرجها عن مسمياتها اما بزيادة حروف أو بنبذ حركات أو نقص أداة فكانما وجد ليطفيء نور هذا العلم ويحفظ مالا يتعقله كالببغاء سواء بسواء كيف يقرئ المعلم الاجنبي تلميذه «ان المسلمين اندفعوا كالسيل يتسابقون الى الكمال وأراك المجد المؤثل ليتقلبوا على الممالك وتوسعوا فى مجال الفنون من العلوم والصنائع وأظهر الله دينهم على الدين كله حتى دخل في أقل من قرن واحد أكثر من مائه مليون نفس من غير كبير حرب ولا كفاح وافتتحوا فى نحو ثمانين سنة زيادة عما افتتحه الرومانيون فى ٨٠٠ سنه وامتد ملكهم من البحر الاتلانتيكى من المغرب الى تونكين الصينية فى أطراف المشرق وان هذا السلطان دام لهم بالتضافر والاتفاق والاتحاد ومراعاة الروابط الدينيه» وهو يريد ان يخسف به وبدينه الارض

كيف لا يحسن المعلم الاجنبي لتلميذه اختلاف الرغائب وتقلب القلوب ومخالفته لاصول دينه وعدم مراعاة جنسية ولا وطنية وهو يعلم علم اليقين انه ان شب على غير ذلك من

التفرق والاختلاف وتشتت الاهواء الذى يريده له الاجنبي كان هو أول من يتملخه من هذا القطر ولا يرضى له بمجاورته له فيه فضلا عن تحكمه عليه

قد أصبحت الامة افرادا متبددين متفرقين متنافرين متخاذلين لاجامعة تجمعهم أبدا ولا رابطة تضمهم لايحن قريب لقريب ولا يرعى حبيب ود حبيب بل انتهي الامر الى الخروج عن البشرية وصارت كفصيلة الاسماك يأكل بعضها بعضا

ان التعليم الذى نحتاج اليه هو ما يرشدنا الي الحقائق التى منها العمل للوطنيين والمحافظة على اللغة والتأدب بآداب الدين والتآلف به كما تآلفت قلوب جاهلية العرب وصاروا اخوانا على سرر متقابلين والعمل للسعادة القومية التى منها تكوين الامة وكل هذا مفقود بالمرة والعلوم التى تدرس باسم الاصلاح كلها بعيدة عما فيه الصلاح والاصلاح

انظر الي هذه الطبقة التى لم تبلغ العشر اذاشبت على هذه الخصال وبلغت مبلغ الرجال ونالت الحرية التامة وبعث بأحدهم الى بلدة اسلاميه لا تشك فى أنه اول من يقوض دعائم الدين

فيها ويزيل معالمه منها. فان لم تلتفت الآباء الى هذا البلاء المتساقط عليهم والا فبعد سنين يسيرة يقاتل هؤلاء الابناء آباءهم على دينهم ويسخرون منهم ومن عباداتهم

أى شئ أدعى الى التفرقة والبغضاء من ان يشب الطفل على غير مصلحة بلده وأهله وقومه ويصبح الوطن بين نحل متباينة ومذاهب مختلفة تؤدى الى مناهضة ومناصبة. أمور اذا مر بعضها بالخاطر مرورا يبست لها الانامل وجف اللسان وجمد الخاطر وتبلد الحس ولا يجد الانسان لسائل فيها جوابا

فقلت له قد أصبح اذا اصلاح المدارس فى بلدكم أفضل من فتح البلاد لان حفظ ما فى اليد أولى من الزيادة عليه ثم ضياع الجميع. فان الامراء والاغنياء يتوازرون ويتكاتفون ويتفقون على تربية أولادهم الذين سيقيمونهم وكلاء على ما خلفوا ومسيطرين على ما أورثوا؟ هل يسرهم أن تذهب هذه الدور وتخرب هذه القصور وقد أجهدوا أنفسهم فيها طول أعمارهم وأفنوا فى جمعها نفيس أوقاتهم؟ فقال انهم فى معزل عن هذا. والاغرب ان فى هذه البلدة أوقافا تغل نحو ٣٠٠ ألف جنيه تقريبا

جلها موقوف على فعل الخير كالمكتب والمدارس والتكايا والخانقاه فهي اما راجعة لتربية صغير أو مواساة فقير أو انتشار علوم أو تشييد رسوم حتى انك تكاد لا تعد فيما رأيت من الابنية العظيمه والعمارات الضخمه التي رأيتها فى ذلك الجانب القديم الا أربعة مساجد جامعة وبعض زوايا للصلاة والباقي مدارس مرصودة على التعليم والتعلم وقد كانوا جعلوا النظر لاعقابهم فتوارثوه حتى انقرضوا وآل أمر ذلك للحاكم الاكبر الذى أقام مقامه ادارة سميت باسم ديوان الاوقاف فباشرت ذلك وصارت تدخل فى خزينتها كلما اكتنزه أولئك المحسنون وأهل الخير مدة حياتهم وادخروه طول أعمارهم وحرموا منه أنفسهم فى دنياهم لانفاقه على هذه المصالح مصالح الابناء والضعفاء والفقراء وتبدل شرطه بتشييد الابنية والعماير المزخرفة والانفاق منه على أقارب الاقارب وأصحاب الاصحاب وادخار ما يبقى الى ان يسقط عليه أجدل الاحتلال فيلتهمه ثم يقف من هم فيه من الخدمة وينادون بالويل والثبور ثم تنهدم الاثار وتندرس العوائد ولا تقوم بترميمها الا جمعية من الاجانب ترشدنا الى

هذا الواجب ولو ان أحد هؤلاء يود انقاذنا مما نحن فيه لاشار على الاوقاف بفتح المدارس كما أشار عليها بحفظ الآثار وخرجنا من أسر المدارس ، ولكن كيف ترجو الخير من غير أهله فأسفت على هذا المال المبدد فى غير وجهة المرصود عليه الذى هو أصل عظيم وغرض شريف

وبينا أنا أتفكر فى هذا الحال قال لى صاحبى لقد صرنا عصر النهار فهل لك ان تنتقل معى بنظرك حتى أريك بعض عواقب الاسراف والتبذير لتقدر المال الذى ذهب فيه مع انه لو صرف فى مثل هذه الوجوه لاغنى وأقنى وجدد وأحياء ؟ قلت الامر لك فأشار الىّ بان التفت ففعلت واذا بقصر مشيد تثبت فيه الاحداق يخال الساكن فيه انه نازل فى منازل الرغد والهناء كأن ارباب الحرف تسابقت فى تحلية ابوابه واصحاب الصنائع تفننت في تزيين حجره وحظائره حتى تجافى عن مواضع التوسط وقد فرشت ارضه ببساط العز فالصاعد اليه يتدرج فى معارج الجلال . جمع نجوم الهناء والنعماء ورجوم البأساء والشقاء ففاخر بطالع سعده طوالع البروج فى السماء . وكثيرا

ما أزرى بهذا النيل عطاء ربه الجزيل ونادى فيه منادى السماح الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل حفت به روضة فسيحة غناء جعل في أرضها أنواع المرمر الذى يزرى بصدور الغادات ونثر فيها من الحصباء ما يروع العذارى الحاليات قد لبست جميع جهاته حلة اسعاد وفاخر قصر سنداد فاذكرنى ما قاله ابو طالب المأمونى العباسى في وصف قصر أبى نصر من أولاد أمير المؤمنين المأمون

فهنيئاً منها بدار حوت مـ لك جبالا من الحلوم رجاحا
ذات صدر كرحب صدرك قدزا د على ظن آمليك انفساحا
يغرس الصيد في ذراها من التقبيـ ـل غرساً فتجتنيه نجاحا
بفناء نطيل فيه خبايا اللحـ ـظ ونلقى للفكر فيه انسراحا
بهوها يملا العيون بهاء صحنها يملاء الصدور انشراحا
شيدها فضة وقرمدها تبـ ـر قد امتج من نداك امتياحا
وثراها من عنبر شيب بالمسـ ـك فان هبت الصبا فيه فاحا
مقنعات فيها الاساطين من فو ق صخور قد انبطحن انبطاحا
كل ناد فيها قد اتشح الفر ش بثوب الربيع فيه اتشاحا
وأرى بين كل نحيين كالرو ض خليجاً من البساط مساحا
وستي ماؤه حدائق غلـ ـبا الى ان غدت به ضحضاحا
صبغة من دم القلوب فمن أبـ ـصره اهتز صبوة وارتياحا

ما بكاء الرياض بالطل الا خجلا من رياضها وافتضاحا
شابه النقش فرشها مثل ماشا به ولدانها دماها الصباحا
وكأن الابواب صحب تلاقو ن انغلاقا ثم افترقنا انفتاحا
وكان الستور قد نشر الطاوو س منها في كل باب جناحا
وكان الجامات فيها شموس أطلعتها ذرى القباب صباحا
والسوارى مثل السواعد كبت نحتها من أساميها اقداحا
وبيوت كأنهن قلاع مزمعات للنيرات نطاحا
ورواق كأنما بسطت فيـ ه دعاه أيدى الاساطين راحا
وجنان لو كنت في جنة الفر دوس لم ابغ غيرهن اقتراحا

وبعد ان تمليت منه نقلني لآخر يشبهه ثم الي آخر يماثله حتى امتلات نفسا ونفسا ووصلنا لحد قولهم « الليل أمسى » فانصرفنا الى حيث نقيم وأخذنا باطراف الحدبث فسألته عن تلك القصور اذ راعنى منها حال يشير الى انها الان مستعملة فى غير ما وضعت له لان فى بعضها جثث أموات وفي بعضها حشرات وفى بعضها صنوف من الضيوف . فقال ان أمر هذه القصور لمن أعجب الامور هذه كلها كانت لملك حجاج يحكم هذه البلاد شيدها تقليدا للقصور التى شاهدها فى أوروبا لملوك تلك البلاد بحيث لم تدعه اليها حاجة غير ما حدثه به خاطره

من اللحاق بهم فى انتظام الهيئة وحسن البزة بالقصور المشيدة والثياب الملونة والاطعمة المنوعة حتى يقال بانكم انغمستم في الترف وحظيتم بالثروة ونهجتم الصراط المستقيم وباطن الامر غير ذلك قلت والى من صار هذا وغيره الان؟ قال الى الحكومة فانها استولت عليها عندما ناقشه مندوبو أوروبا الحساب وأثبتوا ان ما صرف عليها انما هو من مال الحكومه بطرق غريبه واحتيالات بعيدة لا تصل اليها الافكار لانها كلها أختراع وابتكار. فمنها انه لسرعة استجلابه الاحجار التى تشاد بها أرصفة بعض هذه القصور من قرية كذا تؤمر العساكر من جانب الحكومه بالقطع من المحاجر وتنقل الاحجار على السفن الاميرية ثم تقطع قطوع بايعازه في النيل على البلاد المجاورة لها حتي تغرقها فيهتم رجال الحكومة بالامر وتسير المراكب من كل جانب ثم يتم المقصود بأخذ ما هو لازم لهذا الامر الموضوع لا اتلك القطوع فانظر لهذا العمل الذى جاء على حد قول الشاعر

ويا له من عمل صالح　　يرفعه الله الى أسفل

وقل لى كيف لا تخرب هذه القصور او تبور وقد بنيت

بخراب البلاد وموّنت بدماء العباد؟ قلت وكيف وقف المراقبون على هذا السر . قال من الخدمة الذين خالف فيهم قول الله سبحانه وتعالي (ولا تأمنوا الا لمن تبع دينكم) فاستخدم البعيد والقريب من كل الشعوب وأطلعهم على سره فلما سمعوا بقدوم الاجانب مراقبين على الاعمال أخذوا يتقدمون اليهم بالخدم النافعه والدلالة على مواطن الشبه والمغامز التى وقفوا عليها من العمل الذى بايديهم لينالوا منهم حسن النظر فى المستقبل لعلمهم ان البلاد لهم. فكان الاجنبي يحضر للديوان مشيراً الى المبلغ المشتبه فيه رامزاً اليه بدفتره وصحيفته ونمرته ولذلك امكن لجماعة من الاجانب لايدركون سر العربية ولايدرون حساباتهم تصفية ٢٠٠ مليون ليره فى أقل من شهرين بحيث لم يتركوا درهما واحدا من غير اظهار جهته ووجهته ومحل وروده او مصدره

ثم ضاقت يد الحكومة عن الانفاق على تلك القصور فباعت أحدها بأقل من سدس تكاليفه لشركة جعلته نزلا للاجانب الغرباء وجعلت احدها مجمعا للعاديات واصناف الوحوش وهكذا عاقبة السفه وغاية التبذير

مع ان الاوروبيين الذين جعلناهم قبلتنا فى التقليد وان انفقوا الاموال الكثيرة فى تشييد مثل هذه القصور وتزيين الملابس وتحسين الاثاث الى غير ذلك من اوجه المصاريف فانما ذلك جار عندهم على نسبة مخصوصة من فصل ايراداتهم الحائزين لها بالكد والتعب فى ابراز المصنوعات الجميلة والمخترعات الجمة التى تنتج الثروة الواسعة ومن عاداتهم انهم لا يجيزون الانفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لا محيص عنها. ونفقاتهم على كل الاحوال لا تتجاوز حد اللزوم ولا تخرج عن دائرة الاحتياج وكلها مؤسسة على جلب المنفعة والمصلحة. تدخل منزل الرجل منهم من أى طبقة شئت ترى غرفه ومخادعه مشغولات بأمتعة بلده وبضائع قطره وليس فيه قدر شبر عمر لغير حاجة حتى حديقته. وهو لا يشترى ثوبا له أو لزوجته واولاده الا بقدر العوز. وحلى آل بيته ثلاثة أرباعه من المعادن وليس في اصطبله مزيد عن حاجاته. ولكنكم ركبتم الشطط وحملتم الانفس ما لا تليق من النفقات الباهظه يصرف الواحد منكم الافا من النقود ليعمر ارضا فسيحة ربما كفاه عشر مساحتها. ويفرش

بيته بأنواع الفرش وتبقى غرف المنزل بلا ساكن يعلو التراب على ما فيها من الاثاث حتى يبليه. يختم الرجل بما قيمته الالوف ويكون لدى زوجته من الجواهر ما يكفى للايجار والاتجار والاستغلال مستغنى عنه معطل بلا عمل. الى غير ذلك من المصاريف. وأغرب من ذلك انه مدين يتحمل ثقل الدين وثقل فوائده ولا يبيع من هذا شيئا يتخلص به من ورطة الطلب خوفا على مظهره الذى هو فيه. ثم هم بأجمعهم يفضلونكم بأجمعكم فى طرق جلب المال والمنافع وتخفيف اتعاب المعيشة وتحسين وسائل الاكتساب فتراهم للان على الطريقة القديمة التي نشأوا عليها من عهد مئات من السنين لا يفارقهم الجد والاجتهاد كأنهم فى تلك المنازل المصنوعة من اللبن والمفروشة بقصب الحلفاء المعروشة بقضبان الشجر مع ان هذه التجارات الواسعة والاموال التى لا تفنى تقتضى التراخي والفتور. وأنتم قد تحملتم الانين تحت اثقال الديون التي استغرقت جميع ما فى حوزتكم من الاملاك ولمجرد الالقاب الباطلة لا يفارقكم الشمم أبدا وقد استلبوا منكم كل شئ حتى صار من المظنون انه لو استمر الحال

على هذه الجهالة والسفه لاخلوا أيديكم من الزراعة أيضا الوجود من يحسنها منهم سواكم

كل هذه الجهات التى خربتها افكار الجهالة وثلمتها يد البغى ورثها الاجنبي وهو يستخرج منها الكنوز بحكمة ويفجر منها الانهار والينابيع بتدبيره وقدرته فيجنى ونحن الغارسون واذا سمعنا صوت منتقد لافعالنا هذه نغالط الحس ونقوم بانكار البداهة وثبت له ان هذا الاجنبي لا سطوة له ولا قوة وهو غريب دعته الحاجه لطلب الرزق وتحدث خواطرنا بأننا ارفع منه شأنا وأقوى منه يدا وان مساواتنا له في الحركات والسكنات تشهد اننا وهو على سواء فى نهج الصراط المستقيم ونظل ونبيت على هذه الاوهام ويصبح ويمسى على هذه الحقائق التى يريد الوصول اليها فلا يتم شوط المسابقة الا ونحن فى هذا الميدان مخذولون . ترى الاجنبي كذوبا مرائيا شرسا أحمق خائنا ماكرا فاحشا متفحشا سبابا لعانا منغمسا في كل رذيلة كانما هو مستخرج من حمأة الرذائل ولكنه في نفع نفسه وبلده وأهله وملته ووطنه صورة من صور الكمال ونسخة من

مكارم الاخلاق قد توصل مع هذه المبادىء المتناقضه ان يقنع اهـل البلاد التى دخلها ان الاصلاح لا يتأتى الا على ايديه وايدى اخوانه وان قطرا لم يحتلوه محروم من المدنيه ورفاهية العيش ثم لا يزال بهذه الافكار معهم حتى يذللهم ويروضهم ويستعملهم استعمال السوائم من الانعام ويقنعهم بان السعادة لاتنال الا على يديه بهذه الطرق . فاذا دعتنا دماثة الاخلاق ولين الجانب الى اتباعه لا نلبث ان نكتشف عن أسوأ الاحوال ونراه سيدا علينا بعد ما كان خادما لنا

فقلت له بئس ما وصلت اليه هذه الامم : تجريد وتقييد والله لقد اثقلت كاهلى بهذه البلايا حتى أصبح لكل بلية وخزة في قلبي وأظن ان هذا المصاب لا يماثله مصاب أبدا وهو ان يصبح الوطنى عونا للاجنبي وعتادا على امتلاك بلاده يمهد له الصعاب ويزيل من امامه العواثير والعقاب ويسهل احتمال سلطته على النفوس

أفلا يوجد فى هذه البلاد علماء للوعظ أو حكماء للنصح فينهون عن ارتكاب هذه المنكرات أو ان الكلام أصبح لا

ينفع ولا يفيد . فقال نعم ان عدكم مدرسة كلية دينية ولكن الكلام كما قلت أصبح لا ينفع ولا يفيد وسبب ذلك ان هذه المظاهر استعملت لغـير ما وضعت له فأصبح العالم الذى كان يهتدى به فى ترك البدعة والعمل بالسنة يستأنس بأستظهاراته واستدلاله في انتشار البدع حتى استفحل الامر واصبح ما كان يستعمل للضرورة مباحا غير محظور. ثم فشا الامر فصار عادة مقبوله وهكذا حتى دخل فى الدين ما ليس فيه وأغفلت احكامه وقل المذكر بها فأصبحنا كلنا سابحين فى بحار الخطأ « ضعف الطالب والمطلوب » ومع هـذا فاذا شئت أن تؤم هذه الجهة تبركا بها واستطلاعا لما فيها فموعدنا بكرة اليوم بعد القيام من النوم فقلت أجل ثم افترقنا للمنام وما زلنا حتى تبلج الصبح ووضح فانتبهت واذا به يناديني وهو على تمام الاهبة والاستعداد فأجبته ثم لفت وجهى جهة المقصد وقال انظر فنظرت واذا بجامع كبير رحب فسيح احتوى علي مساكن طيبة ومنافع كثيرة وجمع عظيم من الطلبة الذين يقصدونه من بلاد القطر أو الامصار المشرقية فأذكرنى هذا المشهد الجليل حال

مدارس العرب التى كانت تنسل اليها العلماء والطلبة من كل حدب كمدارس البصرة وبخارى وقرطبة ومراكش وفاس ومدرسة بغداد التى كانت تجمع ستة آلاف رجل بين معلم ومتعلم

ومر على ذهنى ذلك العصر السعيد النضر الذى كانت فيه علماء العرب منبثق أنوار العلم ومدارسهم متخرج العلماء والفضلاء والفلاسفة والكتاب وتمثلت لى مدرسة قرطبة التى أمها البابا سيلبستروس الثانى الذى أدخل الى أوروبا معارف العرب والارقام الهندية واثار الحمية فى أهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانكلترا فقصدوا الاندلس وتعلموا الرياضيات والهيئة والطبيعيات والكيمياء والطب وما يتبعه والفلسفة والجغرافيه والزراعة . ومن الصناعات علم عمل الورق والسكر والبارود والخزف ومعرفة تمية وتربية دود القز وغير ذلك فقلت فى نفسى هنا الكنز المدفون

وأخذت أسرح طرفى فى مناظره فوجدت بعد الامعان الدقيق ان سلسلة الشعور بينه وبين الامة مقطوعة غير متصلة الحلقات فان جهابذة هذا المكان غير مدركين شقاء الامة وتعسها

ولذلك لا يشتغلون بما فيـه رقيها وسعادتها والامة جاهلة بأن هذا المكان قبلة مجدها وفخرها وان ارتقاء المدنية فيها انما يكون بارتقـاء العلم . بل نشأ فيها سآمة وضجر منه حتى أصبح فيها من يعتقد ان صدمة التأخر التى صدمتهم لم يكن مصدرها الا هذا المكان فاسفت وقلت

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم واتيـناه على الهرم

نعم أتينا الزمان وقد زال من الشرق ركن التربية والتعليم القائم عليهما بناء السعادة والعاملان الرافعان كل أمة الى قمـة السعادة. أتيناه وقد أهمل العلم النافع الذى يمكن ان يستمد منه القائم على الامة تأديبها وارشادها الى جميع لوازماتها ويحقق لها وجوه منافعها حتى تنتهج مناهج الفلاح

فقال لى صاحبى ما اسرع ما انكشف لك الامر! فقلت لانك لم تعرج بى الى هذا المكان الا بعـد ان قضيت معك أياما بين الامة وادخلتنى فى غمارها وأريتنى اسرافا وتبذيرا وسفها وتبدبدا وحسدا وسوء خلق وتنافر وخروج عن حد الدين وارتكاب لكثير من الجرائم والفساد وسوء ادارة وقلة

تدبير ولم أجد هنا شيئا من موانع ذلك أبدا بل وجدت الامر بالعكس فأن سكوت هؤلاء الاجلاء عن ذلك ادى الى رفع حجاب الحياء بالمرة وكأن من فى هذا المكان بالنسبة الي هؤلاء المتمدنين جماعة من أهل العصر الاولى تطل على هؤلاء القوم من شباك والا فكيف يصح ما رأيت

ماذا يفيد الترقي والتسلق على سلالم النحو والامة هاوية فى مهواة الفناء ؟ كأن المتصدرين للتدريس غير واقفين على مقدار ما أضاعته الامة من الجاه والمال وما ابتذلته من النفوس والارواح وما صارت اليه من الفساد فلا يزالون فى جدال على خلاف بين المتون والحواشي والامة تلعب بها الاهواء كانهم يجهلون ان الامر غير واقع بهم ولئن فرت منه الآباء غير لاحق بالابناء

وجدت عدم مجاراة للامم فى شيء أبداً من العلوم العامة الجديدة التى هي في الحقيقة مأمور بها بعد علوم الدين محثوث عليها بآيات التفكر والتذكر والنظر فى آثار الامم وأخبارها وآثارها والأخذ بما أخذوا به من الالتفات الى لب اللب.

والجوهر الفرد من كل علم . فرغوا من تلك الاقيسة القديمة والاستنباطات المتأخرة وأخرجوا أمرهم من القوة الى الفعل واستخدموا كل شيء فى العجائب والغرائب حتى استجلبوا النفع من ارجل الحيوان بما لا يقل عن يد الانسان وجمعوا بالطرق الحديدية أوصال الارض جمعاء وجعلوا بالتلغراف لكل بقعة منطقا وسمعا وبعد فى القياس أن يكون مستقبل الزمان كماضيه أو ذاهب الدهر كآتيه اذ الزمان أبو العجب وقد أتى بما ليس على الخاطر وأخرج فوق ما تكنه السرائر والضمائر.

دهشت دهشة الخائب أمله الفاسد عمله لانى اصبحت فى حيرة ليس فى قدرتى تجهيل العلماء ولا تهجين المدرسين الاجلاء وخفت أن يصل بعض الكلام الى هؤلاء الاعلام فأعد مستهينا بهذه الطائفة الشريفة التى علا افتخارها ونما مقدارها فقلت لصاحبي ان هذا المكان مما لا يقدر أن يحكم عليه الانسان الا بلسان واحد منه يخبرنا عنه وانى اريد ان افتتح حديثا مع احدهم لاعلم هل يرى ما ارى وهل يحس بالذى دهم البلاد على فجأة فأهبطها من عظمتها وهل يعلم بمصادر الفتن

التى توزعت أهلها والأحن التى تقاسمتهم ؟ وهل يرى انه من الممكن رجوع الامة الى رشادها واتخاذ سبيل تسلكه لسعادتها فتصل الى ما ترجوه من الترقى والحضارة فأعنّي بحياتك على ذلك . فقال هذا مطلب عزيز لان الانقلاب الفجائى الذى حدث فى هذه البلاد أحدث دوارا فى الافكار والعقول فاصبحت ترى المتحرك ساكنا والساكن متحركا وأحاط بها الاضطراب من كل جهة فصارت في أعمالها على غير هدى فالذي أفاق الآن من الامة وتكيفت له الحقائق قليل ومع ذلك فسألاقيك بواحد منهم

كأنى سليمان الزمان وكأن صاحبى ذلك الجان . فلم يرتد الى طرفي حتى رأيت معنا شيخا جليلا . وعالما نبيلا . وحبرا بحرا . وأستاذاً مثقفاً . وفقيها محدثا . مدركا اقصى ما يدركه الانسان فى غايات الكمال فسلم وسلمنا ثم لاحت عليه دهشة من وجوده معنا فى مكان كموضع الزهرة على الفنن الغض لا هو فى السماء ولا هو فى الارض فسكنا جاشه وبدلنا استيحاشه ثم أخذنا بأطراف الحديث فقلت له خبرنا أيها

الاستاذ أين كنتم معشر العلماء حينما دهمت أهل المدينة هذه البلايا تحت ستار المدنية الجديدة وذهبت بالبلاد والعباد أدراج الرياح ؛ ولم لم تحولوا بين هذا الانقلاب وبين هذه الامة المسكينة الى أن اصبحت فى خبر كان ؟

قال كنا بهذه البلاد ونرى كلما يقع فيها على غير هدى ولكن لا رأى لمن لايطاع . قلت وكيف ذلك وأنتم الامناء على الدين النصحاء للمسلمين الخفراء على الذمم الهداة للامم قد أوجب الله طاعتكم واتباع طريقتكم ؟

قال ان الذى جلب للبلاد هذه البلايا لم يعجل بها كما يتوهمه الناظر اليها بل رصد الاوقات . وانتظر الساعات . وزبانيته تجر بالامة لميدان التشبه بإرسان البشاشة واللطف وتشير اليهم بالتسابق فى مضمار التقليد بوحى الايماء ومغامز الطرف حتى اتصلت الامة الى باحة التكيف والتمثيل وأصبحت تتوهم فى كل حركة ان الذى تتوصل اليه من آدابهم هو أصول الكمالات . وان الذى تفارقه من عاداتها معائب وسيئات . ولقد استهونا الامر فى مبادئه وغرنا أن رأينا حاكم

البلاد يحنو عليها ويألفها ويعطف على أهلها فمنعناذلك من سيرها وتحرى أمرها . لانها كانت فى مبدأ الامر تتشبه بالقوم من حيث مأكلهم ومشربهم وعوائدهم البسيطة فى خاصة أنفسهم. ثم ما زالت هذه الخلال الجزئية تتمكن حتى بدا فى القوم افراط كانت نتيجته طروء أمراض عنصرية على بنية الهيئة الاجتماعية فلما رأينا ذلك بأعيننا وأردنا ايقاف سيرها ووقفنا فى طريقها كانت سكنت لذائذها فى نفوس الامراء والحكام فأصبحوا ناقين علينا مع أصحابها الاجانب . وقد اشتد الجدال والخصام مرات : كما وقع فى مشروع الامة وغيره . فتوصل الاجانب من هذا المدخل لاقناع اولئك الامراء بأن الدين واهله عاقة فى سبيل التقدم والمدنية . ولا سبيل للوصول الى غاية السعادة الا بمفارقة الموانع التى فيه . واجتلبوا اليهم من بلادهم المعلمين والمعلمات . للبنين والبنات . وبعثوا بأولادهم لبلادهم وأخذوا بجميع تقاليدهم وادعوا ان ذلك تمدنا على انهم لو تأملوا الدين لعثروا بالتمدن الذى يطلبونه وقد حرموه واهتدوا الى ميزان العدل الذى يحاولونه وما اقاموه . فصارت الحكام تقصى منا

من تراه جافيا . وتدني من كان مصافيا . وبالمقصود وافيا .
والعلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان أو يداخلوا الدنيا .

ونحن ذهبنا بين الرغبة والرهبة

ولو ان اهل العلم صانوه صانهم

ولو عظموه فى النفوس لعظما

ثم ماذا يفعل العلماء فى الامة بعد هذا وأئمة الرعايا وحكامهم الذين هم بمنزلة الرأس للجسد . أو القلب للجوارح . اذا صلح صلحت . واذا فسد فسدت . حملوها على نبذ ذلك كله وراء ظهرها . بل قرروا انهم لا يقبلون مستخدما ولا يقرون عاملا في وظيفة الا اذا كان ممن تعلم اللغات وسافر الى البلاد الاجنبية وكان من حملة كتب التمدن الجديد لبلاده . فرسموا للامة سبيل الخروج من عاداتها وتقاليدها وانسوها أوامر دينها . وسرى التقليد حتى كان من أمره انه فتح لها باب اتباع الشهوات واضاعة الواجبات حتى ضاعت مصالح العباد العمومية . والمتأمل فى سير المتقدمين من علماء الملل يرى ان سعادة الامم كانت ولا تزال مرتبطة باتفاق الحكام والعلماء ولا يوجد هذا الاتفاق

بينهما الا اذا اتصف كل منهما بصفة العلم واتسم بها لانه لا يجد عالم وجاهل

انظر لحال الصدر الاول وتتبع سير المتقدمين من علماء الملة وأخبار الماضين من الائمة تجدان الشرف والاحترام الذى كان يؤديه الحكام لاهل العلم على مرأى من الخاص والعام دعا الناس ورغبهم فى تحصيل العلوم فجدوا السير فى سبيله حتى اتسعت دوائره . وعلت فى جميع البقاع منابره. واستنارت به بصائر العباد . وصلح به أمر المعاش والمعاد. وتناولت كتب العلماء فنونا شتى . فقضلا عن المؤلفات التي لا تدخل تحت الحصر في الاحكام الشرعية تجد مؤلفات كثيرة فى فن الملاحة والفلاحة والرياضة والصناعة والتجارة والعمارة والطب والحكمة والفلسفة والتاريخ وغير ذلك مما يستعين به العالم ويهتدي به الجاهل فكان العلماء بين الناس كالأهلة فى السماء تنبعث أنوارها على سائر ارجائها . وبسبب ذلك تآلفت الطباع وزادت قوة الامة وقويت شوكتها وعمت سعادتها واتسعت دائرة ثروتها . وكفى بالخبر المأثور دليلا على ما أقول (يزع السلطان ما لا

يزع القرآن)

واني لا اخفى عليك ان من سوء حظ المسلمين ان فساد الخلفاء والامراء فى دولتهم يتبعه فى الغالب فساد العلماء الذين يرجي منهم فى حالة الاعوجاج والخلل والعلل تقويم المعوج. وبدلا عن ان يظهروا بمظهر النصيحة يساعدون أولئك الامراء باسم الدين على كل أمر حتى انه لا يروج فى سوق العلوم الا ما يروج فى سوق الخلافة والامارة. ولولا ان الحال كذلك لهمت طائفة بتنفيذ نصائح النصحاء ولم الشعب المتفرق وقطع دابر التشيع الذى شق عصا الجماعة ورمي المسلمين بالانقسام

ولقد رأيت بعينك كما سمعت بأذنك ما حدث عند ما وسد الامر لغير أهله وتولية السفهاء أمور الكرماء من النفور والتباعد بين الناس حتى تعدى الأسافل على مقام الخلافة وبدأ تفريق الكلمة واحتقار الاحكام الشرعية وما انبنى على ذلك من تقهقر العلم وفقد أهله حتى نشأ من كل هذا تصور الدين على غير صورته فانهدم أساسه المؤسس على العلم والعدل وهما أكبر دعائمه ومالت الناس الى التمدن الصورى الذى جمع

البغى والظلم وقهر العباد وفرق اجتماع طوائف الائمة المبنى على الرضى والاختيار وانقطعت الفوائد التى كانت تستمدمنه وتعم جميع الافراد من جليل وحقير. وشتان بين زمان استنارت فيه البصائر وكثرت فيه العلوم والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض الاسلام واندرست فيه العلوم ولم يبق من الاحكام الا الرسوم . والكلام في هذا المعنى طويل وفتح بابه الآن لا يفيد

فقلت له ان هذا لا يخليكم من مناقشة الحساب في موقف السؤال. لانكم ان تخاصتم بهذه الاعذار من عدم تقويم الحكام. فماذا تقولون فى الرضا بالبدع والاباطيل والاوهام والاضاليل التى زعمتها العامة انها من أصل الدين وهي من دسائس اعدائه. فان سكوتكم عنها عد اقرارا عليها وكانكم لا تعلمون ان هذا مما يؤدى للحط من شأنه والتفريق لاجزائه والنقض لبنائه. وانى لا اذهب بك بعيدا ولا أدعوك لابطال الزمر والقمر واراقة دنان الخمر من محال الأجانب . فان ذلك مما يشق عليك ولكن ارسل طرفك الي شكل الموالد التي يقيمها المسلمون

باسم أولياء الله وهى من أشد ما تبلغ به النكاية فيهم حتى أصبح الدين بها مثلة وأى مثلة . نزل به أهله الى الحضيض وأحاطوه بالضعف وألزموه السكون وألبسوه ثوب الخمول والضعة وهو دين العمل والسعى والطلب والكسب والكد وتطهير النفوس من أردان الباطل . ان المسلم ليلتهب قلبه غيرة وهو يرى سير الدين على غير وجهه . وأعجب ما فى الامر ان الذين يقيمون هذه البدع يدعون ان فيهم مزيداً عن المسلمين لانهم يفعلون ذلك من وراء ستار الورع والصلاح وهو التصنع والخداع بل النفاق والرياء

عمروا موضع التصنع فيهم ومكان الاخلاص منهم خراب

فان لم يكن في قدرتكم ازالة هذه المنكرات باليد فباللسان: أذيعوا فسادها وأشهروا أمرها ما هذا الكأس الذى شرب به المسلمون فتساووا به فى الضعف والانكماش والتقاعد والتقاعس والرضاء بالهوان والذهاب بالدين. وأصبحوا وليس فيهم من يقول حقا ليزهق باطلا وذلك أقل مراتب العلماء

أى انسان يكون له من العقل أدنى زاجر ورادع ولا

يمنع أخاه عن اقتراف المنكر ويذوده عن ركوب الاثم ؟

أبليق ان تكون هذه الموالد موضع تلاقى العلماء والفقهاء وهى على هذا الحال من ارتكاب الفجور ومعاقرة الخمور واغضاب الله سبحانه وتعالى وسيف الشرع فى غمده لايشهر ولا يجاهد في هؤلاء القوم حتى التصقت هذه المعاصى بجماعة المسلمين أى التصاق ونكت به الاجنبي وبكت ؟ وكيف لا يفعل وحلقات الاذكار فى ازاء حلقات الحانات . ومجالس الخمر والزمر فى جوار مجالس القرآن وحفلات الاذكار. وكل جماعة في شطح وتواجد وتغن ونقر بالدفوف وعزف بالصنوج واصوات المزامر . هل من اخلاص النصيحه للمسلمين ان يحضر جماعة العلماء هذه المحافل ويأكلون فى ولائمها ولا ينهون عنها ؟ أليس من المقرر فى كتب الدين ان هذا كله ارتكاب لما نهى عنه الشرع الشريف ؟ ومعلوم لكم ان القائمين بهذا يستعملونه وسيلة لقضاء اغراض دنيويه

انعظ علماء الامم من دهرهم « ونسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيح »

ادركوا حقيقة احتياجهم لترقى الهيئة الاجتماعية وبقائها في هيئة سعده فأوضحوا لها أقرب السبل الى خير المناهج وأحسن المقاصد وطهروها من بواعث الضعف حتي لم تبق فيها جرثومة من جرائيم الفساد فارتقت وترقت . ولو ان بعض الزمان الذى يفنيه علماؤنا يقضى فى شيء تحيي به الامة وتسعد لرفعوها الى أوج الكمالات فى عهد قريب

فما الحياة بأنفاس نرددها   ان الحياة حياة الفكر والعمل

يعجب المتأمل للدين الذى اخرج هذه الامة العربية من البداوة المحضة الى المدنية الكاملة واخضع لها الممالك والبلاد والعباد في زمان قريب كيف يكون مدعاة لانحطاط هذه الامة في هذه الايام ...

فقال لى أراك طوقت معاشر العلماء بالذنب وأحطهم بالخطيئة من كل ناحية كأنك تجهل ارتباط الامة بالحاكم أيضاً . وان العلماء والحكام من مجموع الامة بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الانسان . فصلاح حال العلماء والحكام يصلح حال الامة وفساد حالها مفسد لحال الامة بأسرها .

وسمعت منك انك رأيت فى الامة كذبا وزوراً ورياءً ونفاقاً وحقداً وحسداً وأشباهها من الرذائل فاشية ولم تتكلم مع أمرائها وحكامها بشىء أبداً وتشدد النكير عليهم . على انك تعلم اننا عزلان لا نملك من الامر غير النصيحة ونعتقد ان صلاح الامة بالحكام اقرب من صلاح الحكام بالامة . لان فى الاول القدرة التى تحمل الامة على فعل ما تريد منها طوعا أو كرها وفى الثانى ما فيه من الزمن الطويل حتى يتعدى أثره للحكومة فان كنت تريد الاصلاح لِمَ تستصرخ الحكومة أو الحكومة والامة معا فان لبي الدعوة كلتاهما وقع الاصلاح الذى تيأس منه والا فأسمع السامع ونبه الاهم

فقلت له انما أريد ان أنادى حكامكم بلسانكم وأسمعهم ارشادكم والا فكيف يمكن لى وأنا غريب ان أبلغ بنصيحتى ما أريد وكل رئيس من رؤسائكم له مصانع تنصب له تماثيل المدح والثناء وتنشىء له اساطير الشكر والدعاء حتى انهم أصبحوا وعلى أعينهم غشاوة من ذلك لا يكادون يبصرون ما تحت أقدامهم فضلا عن تقدير مراكزهم

قال وما الذى تريده منا بعد الذى ذكرت ؟ قلت أريد منكم أن تعقلوا الوقت الذى أنتم فيه لتعلموا ان حرية التعليم والتصنيف والتحرير والطبع والنشر والخطابه وتأليف الجمعيات بأنواعها الحاصلة الآن فى بلدكم لا توجد ولن توجد فى بلد اسلامية . وهذه كلها من سلالم العزة والترقي فى عموم الامم: وقد رأيتم من حكمة التدريج الذى عوملتم به ان ما أبيح في أول الامر أتى عليه فى آخره . فهذه الوظائف كانت مباحة فاحتكرت والنقود كانت ميسرة فتعسرت والنفوذ كان ساريا فوقف والحاكم كان ظاهرا فاعتكف . فلم لا تظنون أيضا انه سيأتى عليكم يوم تحاسبون فيه على خطرات القلوب وهواجس النفوس وتجبرون على التعليم الذى يريدونه وتمنعون من الذى تريدون وتندمون حيث لا ينفع الندم ؟ أليس من الاولى ان تصلحوا التعاليم الفاسدة وتنصحوا الامة بالاجتهاد في تعميم المدارس على الوجه المرضى وتقوموا فى هذه الفرصة بما هو أوجب عليكم وقد مكنتم من كل شيء وأبيح لكم كل عمل ؟

فقال لى صاحبنا لا تتعب فان طريقة التعليم المتبعة عندهم

كما علمت فاسدة وقد وفد على هذا المكان علماء من الغرب والهند ومن بلاد فزان وغيرهم واتفقت كلمتهم مع اختلاف اقطارهم على ان التعليم الازهرى لا يرجى منه خير للمسلمين اذا بقى على حاله وليس له من فائدة غير حفظ بعض العلوم وآثار السلف حفظاً يحمد عليه والحياة الملية لا تفيض على الامة من هذا الطريق أبداً . أنت تعلم ان طريقة الوعظ والتعليم منحصرة فى الخطابة وقراءة علم الاخلاق والاداب وسلوك طريق التربية الحقة. وما انثلمت هذه الاركان فى مكان الا انثلم شرف الاسلام . يشهد بهذا تاريخ هذه الامة لمن تأمله واعتبر به . وهذه الاركان جميعها مثلومة فى هذا الزمان

ياطالماقيل لهم ان الخطابة والكتابة من دعائم العمران التى قام عليها بناء الاجتماع الانسانى واثبت كتاب الامم انه مامن جمعية ائتلفت ولا مملكة تألفت ولا ديانة انتشرت ولا معاملة شرعية تقررت الا بهذه الآلة التى لها فى النفوس تأثير الترغيب والترهيب والانذار والتبشير . والصناعة اللفظية وطريقة الانشاء وسبك المعاني فى قوالب الكلام بالتأثير يريده المنشئ

متعذرة عليهم مع التأنق والتأني وفراغ البال والوقت . فكيف يتأتى لهم ما تقول من القدرة على الخطابة وذلك مقام شق على أهل الكلام وأرباب النظام

نعم ان الدين مؤيد بروح الله مبلغ على لسان رسول الله ولكن من أدوات تغيير طباع العرب ونقلهم من جفائهم وغلظهم الى التخلق بخصال الكرم والثبات والتحمس وصلة الارحام والرجوع عن كثير مما كانوا فيه سببه القرآن . وذلك لصفاء الروح وكونهم أقرب انعطافا للبلاغة فقامت دولتهم ببلاغة الخطب والرسائل وفتحت الفتوح وقهرت الممالك وتم الخير كله مسوقا بخطبة من خطيب أو رسالة من مجيد . والامثال على ذلك كثيرة حسبك دخول الحجاج العراق أعزل ليس معه الا أرنبة لسانه وتغلبه عليه واخماد نار الثورة وكم قلب البيت من الشعر قلبا فأمات صاحبه وقد كان شجاعا أو شجعه وقد خلق جبانا حتى رمى بنفسه فى ميدان القتال يتوسط الرمح والسيف ويتناول كأس الحتوف بيده فاذا كانت استعصت عليهم أخلاق هؤلاء الناس فلم يلينوها بجيد القول

ومؤثرات النصائح حتى يتأدبوا بأدبكم ويتعلقوا بأسبابكم فتقيموا ملتكم وقد أشرفت على الاضمحلال وتنالوا فضل مزية كبرى يكون لكم بها الفضل على الناس وتثبت غيرتكم بها على الدين واللغة وتنافسوا الاوروبيين الذين يدعون لانفسهم الكمال المطلق . ولسكوتكم أنتم مال بعض القوم لتصديق هذه الدعوى التي قاربت ان تكون حقيقة في الاذهان لا تحول الناس عنها أبداً

قال لى صاحبي ان في الامر لسراً غريباً كنت أظن انه سينكشف لك اذ قلت ان طريقة التعليم عندهم فاسدة فان المجاور بعد ان يقضى خمسة عشر سنة فى التدريس يخرج وهو لا يحسن لغة الدين الا قولا او كتابة لانه لا يقدر أن يخطب الناس كما تريد ولا يكتب بالاسلوب العربى البليغ

قلت وهل يعقل ان أحداً يفهم القرآن والحديث اللذين هما ينبوعا الدين ولا ترسخ فى نفسه ملكة اللغة والقرآن معجزة الاسلام ولا يستطاع العلم بأحكام الشريعة الا بفهم الفاظ كتابها ولا بد فى ذلك من الآلات التي توصله وتمكن من الفهم والتفهيم والتلقى والتلقين والتأليف والتصنيف

والوضع والتدوين

قال انهم لم يمارسوا علم الادب بالطريقة التى اتفق عليها علماء الادب لانهم مقتصرون من علوم اللغة على بعض قوانينها كالنحو والصرف والبيان والمعانى والبديع . فان حصلت لهم ملكة فلا تحصل الا فى تلك القوانين فقط اما ما تريده من الملكة اللسانيه فى نظم الكلام فذلك لا يحصل من هذه الآلات وانما يحصل من ممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه وتطبيقها على القوانين العلميه التى استنبطها أهل هذه الصناعه

قلت أصحيح أيها الاستاذ ما يدعيه عليكم صاحبنا ؟ قال نعم ولكن تنبهت في هذا الوقت خواطر وتشكلت لجنة من جماعة العلماء تبحث فى هذه الحالة بطرق شتى وسيتم بها الخير ان شاء الله عند فراغها من بحثها عن قريب

فقلت له اني رجل غريب وأريد ان لا أنصرف من هذا المكان الا بشي أقدره وأقف عليه . وقد رأيت فيك مخايل من الذكاء والفطنه . فانا اقترح عليك خطابة تلقيها الآن فى ذلك

المكان بعدان ننزلك اليه ونسمع ماتقول . وقدفهمت الموضوع ووقفت على الاصول والفروع لعل الله يفتح بنا بابا مقفلا ويهيئ لكم خيراً كثيراً

فأجاب السؤال وودعنا وأنزله صاحبي وقدكانت صلاة العصر قائمة فائتم بالامام حتى صلى ثم توسط الناس وقام بينهم خطيبا فقال

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« أيها السادة العلماء

الحمد لله جامع الناس ليوم لاريب فيه . وسامع دعاء من يلتجيء اليه ويرتجيه . القامع أعناق جاحدى احسانه والمنكرين المعروف بالمعروف للعصاة والطائعين . الموصوف بصفات التنزيه والكمال . المتجلى على عباده المخلصين بمين الجلال . أحمده حمدا لاأقدره ولاأحصيه . وأشكره شكر العاجز الذي لا يقدر ان يوفيه . وأشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الشفيع الوجيه . وأصحابه الذين ليس لهم في الشجاعة من مثيل ولا شبيه . اما بعد فياعجبا من ابن آدم يطلب الزيادة وعنده ما يكفيه . ويتعرض لما لا يعنيه فيعييه . ويعد نفسه من أصحاب العناية والافضال . وهو من أهل التسفل والوبال فياأيها المغرور . الذى فتنه الغرور . أيحجبك ماأنت فيه

من الغنى عن الموت . أم يبعدك ما مسك من الصحة عن الفوت كلا ثم كلا . وانما حب الدنيا اصماك وأعماك . وجعلك لا تتذكر حالك في اصباحك وأمساك فتذكروا رحمكم الله فقد ناح بالبين ناعيه . ولاح من الموت للعين داعيه وأقبل الادبار وادبر الاقبال وستقدمون على ملك كريم وسلطان عظيم سميع عليم . فان كان أحدكم سيئا يخزيه . وان كان محسنا يجزيه فتداركوا قبل ان يجرعكم الموت كأسه . ويزهق من أحدكم نفسه ولا يحسن اللفظ ولا يلقيه . وينقطع حبل العهد من فيه . واذا به بين يدى الله تعالى ولم يمهل حتى يقلع لباس التدليس . ولا يخلص من التمويه والتلبيس . ولا فرار اذ ذاك ولا محيد من التنكيل والتنكيد . وتنهش اجسام المجرمين والقبحاء باسنان الهوام . وتخرس السنة البلغاء والفصحاء وعند الغرام . ويقول الناس هذا يوم الوعيد . لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد »

فلم ينته من خطابته حتى تصبب عرقا من الخجل وأرسلت طرفى أرقب منتقدا على هذا الكلام من هؤلاء الانام فلم أجد فيهم شعورا والكل مجمعون على الاستحسان فأدركت ان هذا منتهى الفهم وذلك مبلغهم من العلم وأيقنت صحة ما قيل وعرفت الامر من غير تعليل فقلت لصاحبي أين السبيل؟ فقال الى أين تريد ؟ فقلت هجر ذا الى دنيا ليتبدل المقام تلفت وحهى فرأيت مجامع شتى أخذت من كل حالة بطرف فتخللناها وتقدناها وأراد الله أن تجلى لنا هذه المظاهر بمضمراتها فنمر على الحانة فنعلم ان أحدهم من أهل البلاد وقد جاء الى هنا وجمع حـوله الشبان الذين هم زين عصرهم وأمراء

مصرهم بعد ما باع من زرعه لليهودي فلان كذا نسيئة ابذله فى هذا الحرام يتوصل به لشيء عند بعض الحكام . لانه لاسبيل الا بالتقرب من واحد ممن استعملوهم وسائط بينه وبين أهالى البلاد لتقريب المراد وأدخلوهم تحت عنوان كاتم السر وسخروهم لمثل هذا البر . فنظرنا واذا بالمقترحات منهم متواليه والطلبات متتابعة وكلها أشباه نهمة البهائم العجماوات فمن حلو أثر حامض ومالح فى عقب تافه ومشروبات خصت بالطعام تستعمل في غيرها وتزيد ضرا على ضرها والطالب يحلف بالطلاق ويستى بالخناق وملابسه تقع على الارض وتداس ويفك حزام القفطان وتتراخى تكة اللباس وتتسع طيات العمامة حتى يلعب زرها ويقع ورد الملح وعلم خبر المال من قبلها . والغرباء ينظرون ويفرحون ويشربون ويطربون فتركناهم ثم صرنا الى اخرى جمعت الشاب والشابة ووسيط ما بينهما اما فتى أو فتية يوكل بهام المأمورية . وقد استحكمت الشهوة وزادت الجفوة فانكشف لنا ان المسكين خرج من داره بعد رهن أشياء من مقتنياته بالفائده الفاحشه ليقضى هذا الوطر . والباغيه الملعونه لاترضى منه القليل ولا تنيله ما يريده من ذلك القبيل . فهو يتلظى على جمر الاشواق وهى تعده بقرب التلاق

فالتفتنا عنهم والتمسنا غيره فاذا نحن بأخرين فرغت من بينهم جعبة الكلام ولم تفرغ شهوة المدام فهم يلعبون ويشربون وليس لذلك من سبب غير حبهم لمثل هذه المجامع وكراهتهم في البقاء مع أهليهم فى منازلهم . غفلوا عن حق الاباء والاولاد وما ينبغي للنساء والامهات فلا

أقطع عندهم من ملاقاة اهليهم . فهم يعدون اوقات الغياب فى الخارج ليدخلوا البيوت والقوم نيام . فعجبنا منهم ثم لحنا غيرهم وقد مرت عليهم غادة فاذا أحدهم ينشد للاول

ياعز هل لك فى شيخ فتى أبداً وقد تكون شباب غير فتيان

فيطربون ويقهقهون ثم ينظرون أخرى فيقول غيره عند مرورها ما احسن قول حسان بن ثابت

لم تفتها شمس النهار بشيء غير ان الشباب ليس يدوم

فيعترض عليه معترض لانه وصفها بالكبر على انها ليست كذلك ويقول آخر أن هذا على سبيل التأسف أى الاشياء لا فناء لها ويستشهد بقول القائل

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للانسان

ثم تدور الاقداح وبينهم كذلك واذا بأمير أجنبي يدخل عليهم فيقفون له ويبجلونه فيعلم ما كانوا فيه من حديث الصبابة فيميل بالملامة عليهم لتعلقهم بهذا الباطل ويقبح لهم شعر العرب ولغتهم وعوائدهم ويقول لهم ان معرفة أقل عادات أولئك الغادات تغنى عن شعر حسان ونثر بديع الزمان فيوافقونه نفاقا ويسلمون له رياء . ويظهر ان هؤلاء بعض المدرسين فى المدارس للاولاد والبنات وذاك الناظر عليهم أو بعض مدرسي احدى اللغات . ثم نجد فئة أخرى هى بالملامة أحرى فانها افتتنت بالمقامرة فهى تضن أو تحاسب على القوت فى البيوت وتدفع فى هذا الحال كنوز المال بلا ملال . ثم نظرنا واذا مراسح الرقص تخش واى تخش ظهور بالعورات وخروج بهذا العمل عن جميع الديانات والعادات حتي صار

لاجزاء لهم أليق من السحق . ثم استشرفنا غيرها ولا شغل لها الا الكلام كانما هي مسخرة لنقد هؤلاء الانام فتشير الى أحدهم وتسرد ما أعله من بيع الدور وما صرفه فى الخمور وما قامر به فى الحانات وما أكله من حقوق الاخوات والبنات . وتلتفت لغيره وتحصر مقدار خيله ورجله واسرافه فى حوله وحيله فاذا بها أموال تستغرق الكنوز على ان الامير لا حيثية له تؤهله لمثل ذلك ولا داعي له غير تقييد الكبير فى كل يسير أو عسير ثم تدور حكايات البيوع فى محا كم القضاء وما أخذ منها بالثمن البخس وما ذهب في دين لا يذ كر وقد كان عتاداً لعائلة كبيرة وما دلس فيه المرابون حتى سلبوه بغير حق . ثم ذ كروا فلانا ومقدار ما وصل ليده من المال وما وصل بعده الى سوء الحال فكان ولا مبالغة فيما قيل فوق المائة الف جنيه أحصاها عداً وأتلفها نقداً على انه لم يظفر من الحياة بثمرة ولا حول ولا قوة الا بالله فبينما أنا اسمع ما يقال واذا بنسوة تخطر امامنا في حلل الجمال وتستأسر القلوب بالدلال فقطعت خطراتها هذا الكلام وألزمت أولئك الأنام ان ينظروا بسلام فتسارقت معهم النظرات حتى ذهبوا الى حيث يشاؤون . وقد نقل هذا الحال تلك الطائفة للكلام على فشو الزنا فابتدأ أحدهم قائلا ليس لكم حق في ملامة السكارى بعد هذا الحال فان ذنوب العاصى معفو عنها فى جانب ما يفعله الفاسق كما ان هذا لا يذ كر بالنسبة لما يأتيه الكافر الجاحد . هل يليق بامة مسلمة ان يكون من قوانينها . ان يكون من ضمن رعيتها هذه العواهر ثم انها تضمن الكشف عليها ليعلم هل هن صالحات للوطئ والنصراني

واليهودى أولا . فيذهب الحكيم المسلم لاخته المسلمة ويقول لهامايقول خدمة لساكنى هذه الديار من الاجانب ؟ فقال له الآخر وهل هذا أفحش من ان تزنى البنت البكر فيفتض بكارتها زان فاسق لقضاء شهوة حيوانية . ثم اذا خافا العقاب دخل كلاهما من باب النيابة وأقرا امام القاضى بأن ذلك برضاهما واختيارهما . وبعد ان يشهداه على الزنا يخرجان من باب المحكمة ولا اثم عليهما . أليس ان العاقل ينتظر في هذه البلاد وقتا تكون فيه البكر التى لم تتزوج فقط بغير بحث عن حقيقة البكارة؟ أليس انه من اكبر دواعي فساد الانساب وزوال الاحساب مانراه من التهتك وعدم الوقار ؟ والله انى لفى عجب من ان هذه الاخطار والدمار تعدها الامة من أسباب الملاذ ؟ وأى لذة لهذه الحالة ونحن لا تشرق علينا الشمس الا ونسمع عن بيت أظلم من الفقر سراجه . وضاع منه ابتهاجه . أو نرى ثروة بددت . أو مكانة شرف هددت . أو تغريرا أو تبذيرا . وقع فيهما الكثير . وسباق الاجنبي والوطنى مستمر فى حلبة المياسرة والمرابة الفاحشة والمقامرة . ولن يفترقا حتى تكون يد الاول مما اكتسب من خير يسرا ونصيب الآخر مما فرط عسراً . بل من كل ما علقت به صفرا . وهذا ظاهر ظهور الشمس باد للناس منه سوء العواقب من كل جانب . وكأن الذين لهم النهى والامر فى عالم السبات وليس الا أن تخرج النساء من البيت بالبسكليت وتجلس على البار . لا فرق بين الفاجر والبار . وكل آت قريب

وأغرب ما نسمعه — وأشار الى حلبة المدارس — ان الدفاع عن

النفس والمتاع متعلق بجماعة الشبان : يقولون أنهم سيخرجون من مكاتبهم الى مدارسهم ثم ينتقلون الى الكليات ويدخلون من باب الطبيعات ويخرجون من باب الاختراعات فى الصناعات والابتداع فى الآلات والادوات . ثم يتسامون فى البحث حتى تصبح عندهم الديانات متساوية والافكار متناهية ويستوي الحرام والحلال وينشد قول من قال

ان الديانات ألقت بيننا احنا وعلمتنا أفانين العداوات

ثم يمهلهم العدو ويساعدهم تمنيهم تلك الطباع ولا تخدعهم فيدفعون الضار ويجلبون النافع ويحمون الحوزة ويصونون البيضة وتستقل البلاد وتحرر العباد . فقال له أحدهم ضاحكا ان هذا أبعد من الطيران فى جو المحال باجنحة الخيال

أرجو ربيعا أن سيأتى صغارها بخير وقد أعيي ربيعاً كبارها

فقلت لصاحبي أى دنيا هذه التى نقلتنى اليها . قال بقعة المدنية الجديدة . ونقطة الاداب الحديثة ومركز سراة الامة . ومدار الاحاديث المهمة . قلت : ما رأيت فيها الا غماً وهماً . والله لو علمت ذلك ما سألتك . فقال ان شئت الى غيرها نقلتك . فقلت : لا والله كفانى وهلم بنا الى حيث نقيم ثم ندبر ما تصير اليه بكرة . ونراه غدوة فقال أجل . ولم أشعر الا وأنا فى مكانى . حيث أراه ويرانى ولكنى في غاية النكد والحزن مما رأيت حتى انى طلبت النوم فلم أجد اليه سبيلا . وكأن هذه الساعة كانت فاتحة الاحزان فانى لم أتغلب على نفسي وأنام قليلا الا استيقظت على صراخ وعويل امتلأت به البلدة حتى ظننت لاول وهلة

الان قد دهمها عدو أو هاجمها محارب ثم دققت النظر فلم أجد شيئاً من الدروع والصفائح الا الفضائح والقبائح . فقلت لصاحبي ما هـذا الحال ؟ فقال هذا يوم الخميس والعادة فى هذه البلدة ان الاحياء لا يزالون يندبون الاموات (حتي يعودوا اليهم) ولهم قواعد مخصوصة وهى ان الميت اذا مات احتفلوا بمأتمه ثلاث ليال متواليات ثم باربعة أسابيع يستريحون بعد ثلاث منهن خميس يسمى يوم الخميس البطال والاسبوع الاخير اسمه خميس الاربعين . وتحتفل الرجال ليالى تلك الايام بما لا يفترق عن الافراح بنفقات طائلة كلها مقصود بها وجه الباطل من الفخفخة والعظمة ومنهم من يقترض لهذا الرياء بالرباء أو بالصرف من مال القصر أو المعتوهين

فقلت لصاحبي أدنني من أي مكان من هذه لأشاهد هذا الحال عن قرب ففعل واذا بمنزل رحب يدل على مكانة صاحبه فى العز والعظمة مملوء بهذا الصياح والولولة والعويل الزائد والنساء في الدخول اليه حبل متواصل . وخبط مترسل . الواحدة فى أثر الاخرى من طبقات مختلفة لا يمكن للانسان أن يتصور ابداً بان كلهن أو بعضهن من أقارب هذا الميت أو من خلطاء أهل البيت أو خاصائه وكلما دخلت البيت داخلة منهن يتعالى الصراخ كانما الداخلة تزيد فى نشاطهن . ونظرت واذا أشنع العادات وأبشع المبتدعات وأسخط ما يغضب الرحمن ويرضى الشيطان من نساء معولات قد خمشن الوجوه ونشرن الشعور وشققن الجيوب وضربن الصـدور ولطمن الخدود والنوائح صفـوف بالدفوف يهجن لاحزان ويثرن الاشجان ويذكرن كل واحدة من الزائرات بمصابها

وما جره عليها الزمن من الاحن والمحن بألفاظ متفننة التلحين تفتت قلب الجماد فتذكر الاطفال لتذرف عين الفاقدات لهن او المقلات منهن ثم تترقى الى الصبيان ممن لم يبلغ الحلم لتهيج لوعة التى فتكت المنية بولدها وادوات ختانه موجودة ولوازم مهرجانه مستكملة مثلا . ثم تتعالي الى الذى فاجأته مصيبة فترك خطيبته لتشعل نارا وأى نار على استبدال الافراح بالاتراح . ثم تقول في الوالد الذي ترك الاولاد يتامى والنساء ايامى وهكذا من مراتب المصائب وأنواع الوفيات من حرق وغرق وموت فجأة وميت لم يدركه الطبيب وغريب لم يشتف من الحبيب

والنساء كلما يسمعن هذا يضربن بأرجلهن الارض وهن دائرات نائحات صائحات باكيات على أشنع حال يستنكره الشرع ويستقبحه العقل والرجال في أسفل الدار لاناهي منهم أبداً كأنما اعتادت الاذان على هذا الحال . ولا فرق في هذه العادات بين غنية وفقيرة وعظيمة وحقيرة . ثم أخذ بعض النساء يخرجن الى بيوتهن وكل واحدة منهن حملت معها من أثر هذا الانفعال داء تنغص به على زوجها يوما وليلة من أصناف الاوجاع والصداع . وبقيت فى محل المأتم الفرق التى شأنها ذلك وأخذت الطهارة تشتغل بتحضير الطعام كأنما المأتم فرح وكيس صاحبه مفتوح لهذا التبذير والاسراف حتى اذن الظهر فامتدت الموائد وأضحت النسوة الباكيات آكلات والنائحات ضاحكات واشتغل كل بشأنه حتي انتهت المآكل وأخذ الباقي فى الانصراف ولم يبق من أصحاب البيت الا خاطاؤه الاعزة الذين كان يجب من بادىء الامر قصر العزاء عليهن

وهكذا أقيمت الموائد للرجال أيضاً وما انتهوا منها حتى أذن المصرف فوافت القراء وتوافدت الزوار وقامت أشخاص مخصوصة للاستقبال والتعظيم وآخرون للترحيب والتأهيل وغيرهم للاجلاس والتشييع ودارت عليهم القهوة وسجاير الدخان كأنما هم فى فرح فقلت لصاحبي أليس لهؤلاء القوم من زاجر ؟ قال نعم: قام من أهل هذه البلاد ناصح ورأى اقتصاد النفقات والتقليل من هذه المنكرات فأثر قوله فى الرجال فاقتصروا من المأتم على ثلاث ليال وابطلوا شيئا من العادات كانت تفعل امام الجنائز مما يسمى فى عرفهم بالكفارة وهى عبارة عن خبز وتمر توزع على الفقراء ولكن النساء بقين على القيام بكل العوائد التى منها هذا العويل لمدة الاربعين وفى كل موسم على طول السنين فقلت العجب العجب أرادوا ابطال البدع فعمدوا الى احسنها فأبطلوه وجاؤا الى أشنعها وأقروه وليتهم أبطلوا ما للنساء واقروا ما للرجال

ثم قال وأين انت من اقبح العادات : الحمد لله على انك لم تر خروج النساء الى المقابر خلف الجنائز خصوصاً ما كان منها من اطراف البلدة انى اظنك لا تقوى على مشاهدة هذا الحال . وكيف تفتح العين على مئين من النساء المعولات وكلهن قد صبغن الوجوه والايدى والملابس بالسواد وبأيديهن المحارم يلوين بها وقد اختلطت الاصوات اى اختلاط ووصلت الى السماء . والاخلال بالاداب المرعية فضلاً عن التهاون بأوامر الشرع ونواهيه يادلكل من عنده مسكة من عقل

ولو نظرت لخروج نساء الامراء الى المقابر فى ايام المواسم والاعياد.

وقد يجمعن من المآكل والمشارب ما يكفى لقضاء الليالى هناك لتعجبت من اتخاذ هذه المواضع – مواضع التذكر – اماكن اقامة يتلوث فيها الميت والحي . ولا يعود على تلك الجهات الا القاذورات التى تبقى من بقاياهن وبقايا ايديهن . نعم ان فيها من فعل الخير والتوسعة على اهل تلك الجهات ما لا ينكر وكفى ثواب ما يتلى من القرآن على تلك المقابر فى تلك الليالى . ولكن هذا الخير كله مشوب بسيئات جمة ولا ينظر اليه بنظر الخير الا اذا كان منقى من هذه الادران والاوضار

على ان سائر البلاد الاسلاميه فيها المآتم مطابقة للشرع وفى غير الاسلامية موافقة للعقل تقضى بحالة لا يتغير فيها حالة البيت واهله والمتقربين اليه ولا تنصب فيها البلايا والمصائب بهذا المقدار . ولا يجتمع الموت وخراب الدار . ولا نستمع صياحا ولا عويلا ولا بكاء ولا نحيبا ونحن لا ندعى عدم الرأفة والحنان ولا نوصى الناس بقسوة القلب وشدة القسوة فقد كفى قول النبي صلى الله عليه وسلم « ولا بد للعين ان تدمع » واعظا . ولكن الملامة ان تبكي الميت حتى يعود . وان نتلاهى بباطل الحديث فى محال العزاء . وان نتشاغل بلغو القول والقرآن يتلى حتى اصبح الحال (كالماء الحوار فلا هو حلو ولا هو مر) لا ندرى لم اجتمعنا : لقضاء الاوقات للاتعاظ بمن مات وفات . ورحم الله الخليفة المأمون حيث قال وقد عزى فى ولد له . ان كنا واريناه التراب بأيدينا فلم نبك عليه ؟ وان كنا نبكى عليه فلم واريناه التراب ؟ » وهذه حقيقة يجب الاقتداء بها لان الموت امر عام والتساوى فيه فى المصيبة اعدل ولا معنى لتكبير الاحزان وتكثيرها وتجسيم الهموم

والمصائب وتعظم النوائب بهذا المقدار

ثم قلت لصاحبي تنقل بنا الى منظر يروق ومخبر يطيب. ومالنا وهذه المواطن المحزنه وحديثها المؤلم . اما وقد مات الميت فليحى الحي. فلفت وجهي فوجدت معالم مقامة في اماكن طيبة تدل على علائم افراح وولائم سرور . فتحققت من أحسنها منظرا والطفها اجتماعا وحولت بصري اليه فرأيت مكانا يدل منظاره على سعة صاحبه وفرط ثروته فدعونا للعروسين بالرفاه والبنين . ثم أخذنا فى الفرجة عليه فاذا به شكل مخضرم : جمع بين ازياء الشرق وعوائد الغرب. فسمعنا من لطيف الاغانى ما اثلج الصدور. ونظرنا من لطائف المناظر ما بهر العيون . وما زلنا حتى آن ان ينتصف الليل . واذا بباب لطيف فتح فى جانب من المكان ادى الى نظام غربي غريب مرسوم على طراز لطيف تبين لنا منه ان الدعوة منقسمة الى قسمين : الاول من دعى للاطعمة الاعتيادية وهم أهل البلد. والثانى من دعى للدخول في هذا المكان وهم نزلاء البلاد أو الآخذون على مشربهم. فدعوهم فلبوا مسرعين ودخلوه وفتحت أصناف المشروبات والمرطبات وأمامهم مايلزم من المآكل والفواكه اللائقة لمثل هذا الحال . فاستغرقوا فى لذائذهم حتى تجاوزوا الحد اللائق بهم فكان هذا الاسراف من أكبر الدواعي التى أدت لخلل نظام الوليمة لانهم لم يخرجوا منه الى موضع السماع الا وامتلأ المكان صياحاً ونباحاً وأفسدوا ما كان منتظما . وبينما أنا غريق فى هذه الحالة قال لى صاحبي : تأمل حالنا وحال من تشبهنا بهم . ألست ترى طيشنا وسكونا وعقلا وجنونا ؟ فنظرت واذا الحال كذلك . واذ كرني

هذه الحالة ليالي نحشهم بمواضع اللهوالتي أرانيهم فيها . فأسفت على اننا تشبهنا وما أشبهنا وليس العيب على العادة وانما العيب على من يستعملها وهو يعلم انه يسيء الاستعمال. وحاشالله ان يكون ذلك تسهيلا لها وانما هو الحرص على مراتب الجنايه فان الذى بلغنا من أنفسنا لم تبلغه فينا الاعداء

وما زلنا كذلك حتى مضي من الليل معظمه وداخل أولئك من خمول الشراب ما تغيرت به حالة النشاط معهم فسارعوا للذهاب . وبقينا مع من بقي من محيي السماع ننتقل من مقام الى مقام حتى انتهي امر الوليمة وانصرف كل الى مكان وبقيت مع صاحبي فى مناقلة حديث ومساجلة كلام تسترقنا فى اثنائهما سنة من المنام حتى طلع علينا نهار الجمعة الشريف . فتأهبنا الى قضائها وسألت صاحبي في ذلك فقال نلتمس المسجد الجامع لانى اود ان تتأمل هذه الجامع

فنظرت واذا المساجد والمصليات خلوا من المسلمين لم يعمرها غير قليل منهم وهم عامة الخلق الذين بقيت في قلوبهم حرمة الاسلام ورعاية لابتعادهم عن تلك العوائد وقليل من الطبقة الوسطى الذين عصمهم الله. وقد قل المتسارع اليها حتى كأن الذى يؤدى صلاتها ويدعي لها يدعى الي بدعة وضلالة وكان من في البلدة من حاكم وآمر من غير المسلمين لا اعتداد له بها ولا رعاية لها عنده . فضاع بينهم أجل مشهد ترتبط فيه القلوب وتتناجى فى ميدانه النفوس : مجتمع المسلمين وحفلة المؤمنين . ولئن دام هذا الحال تصبح هذه المساجد كآثار الاقدمين تقصد للفرجة والزيارة لا للصلاة والعبادة ويقال لمن يدخلها : « هنا كان يصلى المسلمون »

ثم صرت أتخلل المساجد بنظرى فى كل محلة فاذا كلها على هذا الحال حتى وجبت صلاتها . فصليناها حيث أدركناها بعد ان سمعنا خطبة تزهق منها النفوس اشتملت على سياق وسباق فات علماء البديع تدوينه وان يسموه « سم ساعه » لانه يحيل الصفات الحميدة الى اضدادها فيميت الهمم ويقطع الامل ويفسد العمل ولا معنى له الا الوجود فى رابية على أكمة أو فى تحت تحت جبل قعيداً أو حيداً والاستسلام لكل شىء وان يعتقد بأن لا فرق بين الحياة والموت . على ان الدين يشتمل على معانى وينتظم فى ضمنه أمور أخرى عليها قوام هذه الحياة الدنيا واظهار عجائبها واسرار موجوداتها ومخلوقاتها . وكفى بقول النبي صلى الله عليه وسلم « الدنيا مزرعة الآخرة » ثم انا خرجنا بعد ان دعونا لخطيب هذا المسجد وخطيب الكلية الاسلامية بخير وسلام

ثم ان صاحبى اعاد نظرى الى ميادين الخلاعة واللهو فاذا هى ملأى بالاخوان والاصحاب والكل على لذائذهم عاكفون وفى أمرهم مستغرقون حكموا على اليوم انه يوم لهو وخلاعة وعطالة وفكاهة ففرضوا على أنفسهم فيه تروح النفس من عناء العمل ولكن على غير ما كان يفعل آباؤهم واخوانهم الذين سبقوهم بل بيتوا على قضائه على هذا الحال فى مواطن الفحش وقبيح قضاء أحسن الايام فى أقبح المواطن . على انهم قد ضيعوا بالتقليد الجديد تلك الاجتماعات الجميلة التى كانت تقام فيه في المنازل على أجمل شكل بطهارة ونزاهة وتقضى بالمسامرات الادبية والاغانى الشجية . لا عار ولا شنار ولا ملامة ولا غرامة . فبعد ان رأيت ذلك

قات لصاحبى الى هنا بلغت الروح الحلقوم وما كنت أوثر ان أرى بعينى هذه البلدة التى يقال عنها انها « كنانة الله فى أرضه » و « وسط ثوب الخلافة » و « منبع العلوم » فى جميع الازمنة القديمة والحديثة التى لو عد من قصدها من جميع الانام للتعليم والتعلم لفات الملايين عدا بهذا الحال لا وطنية ولا ملية ولا وحدة ولا دين ولا اعتقاد ولا احترام العوائد القديمة ولا عمل بالتقاليد المحترمة

احلف لك انى لو تغيب عنها رجل من أهلها ثم عاد اليها لانكرها واقسم أنها ليست البلدة التى هو من اهلها . لقد كانت هذه الامة لا تجاوز معاصيها فكيف تركت العوام تتابع الضلال من الاجانب الى هذا الحد حتى اصبحوا شركاء لكل فاسق . ما هذا التفنن فى الاثام من كل طرف . كل من فيها عامل على هدم عوالمها بحسب طاقته حتى لم يبق من تلك الرسوم المشادة شيء يستدل به على أصلها اين مجالس أنسها ؟ أين لطف أهلها ؟ أين المعروف المعروف فى أمرائها ؟ اين ظرف خلفائها ؟ اين نكات ظرفائها ؟ اين المسامرون من اهلها ؟ اين القارئون من فقهائها ؟ اين المغنيون المحيون لليا ليها الزاهية الزاهره التي كان يود الجلساء ان يمد سوادها بسواد شبابهم ؟ . . . لقد فقدت كل شيء حتى لطيف الهزل من القول . اين اسباب ترويح النفوس اذا قبضت ؟ اين دواعى تحريك الطباع اذا وجمت ؟ . . والله لو ان كل ما كنا فيه كان قبيحا وكل ما صرنا اليه الآن مليحاً لما جازت هذه المعارضة . ولكان من الواجب ان نبقي بيننا شيئا من عوائدنا نتذكر به سابق امرنا لندرك من الم بؤس القديم لذة نعيم

الجديد . على ان الحال غير ذلك . ولنحن احوج واشوق الى ما كنا فيه مما صرنا اليه . لقد استبدلت كل لذة من تلك بهرج ومرج دائمين متلازمين . وتفنن اكلة السحت وخونة الامم في غرس الخراب بيننا فاسافوا المضطر وشاركوا المتوسط وحسنوا للغني السلوك معهم في المرابة فادخلوا الربا عليهم من كل طريق حتى لا تسلم طبقة من مشغولية البال وليفترسوا الكل ويكونوا مأكلة لهم وكان كذلك فحرموهم لذة العيش واصبح كل واحد فى هم وغم من مداومة الفكر فى ماصار عليه وماسيصير اليه . وكدروا عليهم صفاءهم واذهبوا بهجة الحياة حتى اصبحت تراهم يتكلفون الانس في اى اجتماع لانهم لا ينفكون عن ذكر ما هم فيه من تلك الاحوال يتفاوضون فيها فى سماعهم وأكلهم وشربهم وانسهم مع ان تلك السويعات ربما كانت مدبرة بينهم على ترويح انفسهم ليزيلوا عنها بعض ما هم فيه ولكن كيف ينسى العليل الألم . غدت مواضع اللهو سجونا على قاصديها من اهل الوطن يرونها وقد صارت باحدى هذه الطرق لبد الاجانب واصحابها من فرط ما دهاهم فى وبال . ففقدت اهلها لذة الحياة بما فقدوا لذة القناعة . حمل لهم الاجانب ماليس من طباعهم فطمعوا فيه واستبدلوا عوائدهم بغيرها فدخلوا في امور لاقبل لهم بها تحملوا بفعلها الوزر واثقلوا كواهلهم بالدين فاصبحت ارواحهم فى يد غيرهم . وهبوهم ثمرة كدهم وكسبهم فاصبحوا فى حسرة دائمة لا يروق لهم منظر من مناظرها ولا يحلى فى اعينهم الا وهو ملوث بدماء المظلومين منهم ملطخ بأثر تلك المكاره التى ذاقها اهلها من اجلها فلكل نظرة حسرة والناس

فيها لم ينتبهوا حتى رأوا العبرة في انفسهم وخلت البلدة من النصحاء واصحاب الرأى والتدبير واسلمت نفسها الى اعدائها يبيدون منها كل ما فيها من ثراء ومال وجاه وعوائد وتقاليد واحكام ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

وبينما انا غريق فى بحار هذه الافكار ارخى الليل سدوله. وسحب الظلام ذيوله . فنبهني صاحبي وقال لى انا على الرحيل غداً ففي اى شيء تريد قضاؤه ؟ فقلت

لا مرحباً بغد ولا اهلا به ان كان تفريق الاحبة فى غد

والله لقد فجعنا بهذه الصحبة التى ما سلمت فيها حتى ودعت وكيف اهبط الى الارض بعد الكشف عن بصيرتى ومشاهدتى الاحوال على حقيقتها من غير مصانعة ولا مواربة . ولقد صدقت بقول القائل «ان الرذائل تستأثر اصحابها ولذلك لا يدرى الفاسق برذيلة فسقه ولا الزانى بحث الزنا وهكذا من هم على وجه الارض لو كشف عنهم الغطاء لعلموا انهم فى حمأة قذرة

فقال ذلك امر الله وحكمه في خلقه فلكل نجم أفول ولكل زهر ذبول . ولا بد من الفراق بعد التلاق كما سلك من قبلنا هذا السبيل. حتى مالك وعقيل . فقلت الامر لله فى امرنا واليك فى غدنا . فرأى بعد ان فكر ودبر أن يشهدني الحاكم الاكبر . وامرنى بالراحة والانتظار . لارى بكرة ذلك النهار . فبقيت ساهما . وقضيت الليلة نادما . حتى طلع الفجر فنادانى فلبيته فرحا . وناديته فجاءنى مرحا . وأخذنا باطراف الحديث حتى أدركنا ضحوة النهار .

ثم لفت وجهي فاستشرفت قصراً شامخ البناء راسخ الاركان باهراً فاخراً قد شيد على احسن نظام واتم هندام واذا وفود الزائرين تتوارد اليه . وصار يرمز لي الى الطبقات المختلفة من اجانب ووطنيين ويريني من منهم فى خدمة الحكومة كالعالم والحاكم والامير والوزير والمفتى والقاضى . ومن منهم فى الخارج كالتاجر والزارع . وحجاب الحاكم وخدمه يدخلونهم حلبة حلبة على الامير . ودعاني الى التقرب لاستماع الحديث فدنوت باذنى حتى الصقها بمنافذ المكان . واذا الحديث لا يخرج عن مسامرات اللذة والفراغ وكلما عرض شيء وفيه أدنى مساس بالحالة الحاضرة لاتسمع الاصيغ الدعاء والثناء وترتيل آيات الحمد والشكر على ما هم فيه من الخير . كأنما البلاد بلغت غاية الرفاه ووصلت لاقصي ما يتمناه المتمني لها من السعادة وانتهت في رقيها لأرقي معارج الكمال . فضجرت وكدت اشافه القوم بما هم فيه . فصبرني صاحبي وقال لى « لذلك أسباب » وما زلت حتى فرغت الطبقات وانتهت المقابلات فاستئذن على الامر بخادم من خدام حكومة وبيده ورقات عرضها وتشرفت باسمه الكريم من غير معارض ولا مناقض لانها مما قرره امناؤه ووزراؤه فى مثل جلساتهم الماضية ثم آن وقت الظهر فاستدعى خاصته وتناول معهم الطعام واذا بحديثهم يفيد ان الزائر لم يزر صدقا والمزور لم يلاقه حقا وانما هو رسم اقيم من قديم ليظهر فيه الحاكم بمظهر التقرب من رعيته وتكون الرعيه مكاشفة له فى شؤونها واصبح الامر الآن وقد ذهب معناه وبقي مبناه فأسفت وندمت . ثم بعد قليل انتقل ركاب الامير بالعز والكرامة حيث مقامه فتابعته بنظرى حتى بلغه واذا بشؤون خاصة يظهر

انه أعدها لذى السآمة والضجر وقطع الوقت على ما اقتضاه حكم القضاء والقدر . فتعلقت برقبة صاحبي وآليت عليه ان لا يبرح حتى يشرح . فبعد ان توقف كثيرا انزوى معى الى ناحية وقال ان الامير ادامه الله يعلم فوق من يعلم ويتألم أشد مما تتألم . ولله مناشىء خير فيه كثيرة امتاز بها عن كثير غيره فضلا عن حرية فى الطباع تنبئ عن شهامة وكرم اخلاق وطيب عنصر . ولكن عرض بعد ذلك من الامور ما ابطأ سير ذلك الخير . قلت ولم ذلك يكون وتختلف هذه الظنون ؟ قال . لا اقول

قلت هل اصبح ما وصلت اليه الامة من جميع الاتعاب والبلايا والاضطهاد والرزايا مقابلا من الاهلين بالسكون كانهم فى منازل الرغد والهناء ليس لحا كمها الاكبر خاصة يشاركونه في أمله . قال : وغير ذلك

قلت هل يوجد في بعضهم من هو مهتك للسر مشيع له مؤثر هواه غير مأمون من الغش والحسد فلا يصح أن يستشار في شيء من هذا؟ قال : وغير ذلك

قلت هل بين هؤلاء الزوار من رفعتهم يد الغير قسرا او حكمتهم جبراً ابطلوا العمل بالخير والمنفعة لحال البلاد فهم في نظره اعداؤه وفى نظر الامة أو داؤه ؟ قال : وغير ذلك

قلت هل أصبح امينهم غير متحفظ من ائتمان الخونة وصادقهم غير محترس من حديث الكذبة وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة؟ قال : وغير ذلك

قلت هل فى هؤلاء القوم من يسهل احتمال السلطة الاجنبية ورضى

بيع البلاد للغريب ؟ قال : وغير ذلك

قلت هل أصبح من القائلين من الباطل غايته فلم يلزم القصد والصواب؟ وهل أمسى من السامعين من سمته سمعة ورياء فلا يدفع بالنصيحة هوي ولا يبلغ بها حاجة دنيا ؟ قال : وغير ذلك

قلت هل أصبح من السامعين من لا يؤمن على سر فان ناجيته بخير او شر كشفه ولم يرزق به اتعاظا فلذلك لم يخلص احد له فى نية ولم يسع فى الخير خوفا على نفسه من عيون الاعداء ؟ قال : وغير ذلك

قلت لقد اصبح الامر مما لا يشتبه على ذوى العقول ولا تشتد فيه حيرة المفكر . وقد وصل علمه الى عامة القوم فضلا عن خاصتهم وتحققوا ان الامور زالت عن مراتبها والعدو صرح عن محضه ولم يصبح لأحد فى جهالة الحال عذر ولا فى تضييع الحق حجة . فهل لهذا التقصير والاستبطاء والاغترار دواء ؟ قال : لا ادرى

قلت اذاً انقطع الامل . وندع العمل . ولا نترقب طواف طائف الغيرة على النفوس بما فيه مجاراة الامم الذين فكروا فى امرهم وشمروا عن ساعدهم ونركن الى اليأس والقنوط وننشد قول القائل

ويابعد الاصابع من سهيل ويا بعد الصلاح من الفساد

فقال لا أدرى

فقلت له استحلفك بالله الذى خلقك الا ما هديتنى لطريق التحقيق ونصحتني أيها الصديق ؟ فقال لا شيء غير الرجوع الى الله وسلوك الطريق المستقيم والتوبة عما فرط . واتحاد القلوب على كلمة الصدق واعلاء

كلمة الحق ونبذ التنافر والفتن التي سببت لكم الاحن وجلبت المحن . ونزوعكم عما يسوله لكم الشيطان من البهتان . والتوجه لقبلة الوحدة المحمدية . والسير على الطريقة الشرعية متعاضدين على نصرة الله لينصركم متوازرين على اقامة دين الله حتى يستخلفكم فلو استقمتم ما اتقمتم

ثم قال لي ودعني يا صاحبي . جانب جانبي . وتخلى عني . فاذا بي على الغبراء وهو يصيح بي في كبد السماء : كفاك كفاك ما سمعته باذنك وشاهدته بعينك . وهذا فراق بيني وبينك

فرغت من قراءة هذا الكتاب بعد صلاة يوم الجمعة مساء
٢٢ اكتوبر ١٩١٥

محمد ناصر الصادق